مسائل الاعتقاد في قصة موسى عليه السلام في الشريعة الإسلامية

د. هيثم فهيم أحمد مجاهد *

سلم البحث في ٢٠١٢/٩/٢٢م بسم الله الرحمن الرحيم اعتمد للنشر في ٢٠١٢/١٠/٥م

ملخص البحث:

تعد قصة موسى عليه السلام من القصص الغنية بالفوائد، التي اعتنى بها المسلمون مرارًا وتكرارًا، غير أني أحببت أن أبرز جانبًا مهمًا فيها؛ ألا وهو الجانب العقائدي؛ وذلك لبيان أن التّوحيد هو الأصل في بني آدم، وأن الشرك طارئ ودخيل. وفي هذه الأطروحة أتناول مسائل كثيرة اشتملت عليها قصة موسى عليه السلام؛ منها: مسألة توحيد الربوبية، ومسألة توحيد الألوهية، ومسألة توحيد الأسماء والصفات، وتناول بعض الصفات، وكذلك مسألة القضاء والقدر، ومعجزات موسى، وقصة موسى والخضر، ومسألة عصمة الأنبياء. فمن المقطوع به أن درب تصحيح المفاهيم يوصل إلى صلاح الدين والدنيا؛ خاصة إذا علمنا أن الشرائع كلها اتفقت على إثبات التوحيد على كثرة عدد الرسل المرسلين، فالتوحيد هو دين جميع العالم أوله وآخره؛ ولذا كان هذا البحث (مسائل الاعتقاد في قصة موسى عليه السلام في الشريعة الإسلامية) محاولة مني لتوضيح ذلك، وبيان وحدة أصول الرسالات.

Abstract:

The story of Moses (Peace be upon Him) is indeed content-rich and full of benefits, and many Muslim scholars have largely attended to it for a wide variety of purposes. However, to indicate that monotheism is the common origin of all Children of Adam and that Shirk is spurious and extraneous, the study presented here will concern itself with a key aspect of the story; that is the creedal aspect. This paper discusses a large number of issues that the story of Moses comprises. These issues include: the Oneness of the Godhead; the Oneness of the Divinity; and the literalness of Allah's Names and Attributes. It also discusses the issue of fate and divine decree, the miracles of Moses, the story of Moses

* أستاذ العقيدة المساعد بجامعة أم القرى، والمدرس بكلية الآداب جامعة طنطا.

and Al-Khidr, and the infallibility of Prophets. It is indisputable that the path of correcting concepts leads to the rightness of Deen and Dunya; especially if we know that all Revelations, with the large number of Apostles sent to mankind, have agreed on affirming the Tawhid principle Thus, this paper entitled *"Issues of Faith in the Story of Moses (Peace be upon Him) in Islamic Sharia"* is an attempt from the researcher to elucidate that all heavenly messages come from one source.

المقدمة:

الحمد لله الذي خلق العباد ليعبدوه، وأسبغ عليهم نعمه ليشكروه، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ، دعا إلى توحيد رب العباد وصبر على الأذى في سبيل ذلك حتى استقرت عقيدة التّوحيد، واندحر الشرك وأهله، وعلى آله وأصحابه الذين اقتفوا أثره وساروا على نهجه، وجاهدوا في الله حق جهاد.

أما بعد:

فإن المتأمل في الدراسات الأكاديمية التي دارت حول قصص الأنبياء يجد أن الدارسين له إنما اعتنوا بالجوانب الدعوية في هذا القصص، أو الجوانب التربوية، أو الجوانب البلاغية والأدبية، أو غيرها من تلك الجوانب، ونجد القليل منهم من اعتنى بالجوانب العقائدية فيها، رغم أن هذا الجانب من أهم الجوانب التي ينبغي للباحثين أن يلفتوا النظر إليها، وأن يشحذوا العقول ناحيتها، فهي المقصد الأسمى من إرسال الرسل، ومن أجلها خلق الله ﷻ الكون وما يحويه من مخلوقات شتى.

قال ربنا ﷻ:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (سورة الأنبياء:٢٥). وقال ﷻ:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات:٥٦).

فالطريق الذي سار عليه الرسل والأنبياء هو طريق التوحيد، والتزموا في ذلك بالمنهج الرباني الذي دلهم عليه ربهم ﷻ، لا يحيدون عنه قيد أنملة، وكيف لهم بذلك وهم المصطفون الأخيار، المبلغون عن رب العزة كل ما أوحي إليهم دون

نقص أو زيادة أو تحريف.

وقصة موسى عليه السلام تشتمل على جوانب كثيرة من جوانب العقيدة، التي يصعب علينا التعرض لها بمزيد من الإسهاب في البحث والتحليل، بيد أنه ما لم يدرك كله لا يترك جله، فالقصد من وراء هذا البحث هو بيان أن عقيدة التوحيد واحدة وثابتة عند الرسل، لا تتغير بتغير الأمم والأقوام، وأن منكري هذه العقيدة ما هم إلا حملة لواء العناد والجحود، والتكبر والفجور، وأنهم يسقون من معين واحد؛ ألا وهو معين الكفر والإلحاد.

والقارئ لقصة موسى عليه السلام يجد أنها من أكثر القصص النبوي الذي تعرض لقضية التوحيد بصفة عامة، وذلك لأن فرعون ادعى الربوبية والألوهية لنفسه، وأنكرها عن الله عز وجل، ومن هنا كان عظم جرم فرعون، وعظم دعوة موسى عليه السلام؛ إذ أن مثل هذا الفرعون إنما هو في حاجة ماسة لبذل جهد كبير في إقناعه من أجل تخليه عن دعوته الفاسدة، وسحب دعواه الباطلة، وتغيير مسار اعتقاده؛ وتحويله من تعبيد الناس له إلى تعبيده هو وقومه لله تعالى، وهنا تكمن عظم الرسالة الملقاة على موسى عليه السلام؛ فهو أمام إنسان يدعي الربوبية والألوهية لنفسه.

فمن المقطوع به أن درب تصحيح المفاهيم يوصل إلى صلاح الدين والدنيا؛ خاصة إذا علمنا أن الشرائع كلها اتفقت على إثبات التوحيد على كثرة عدد الرسل المرسلين، فالتوحيد هو دين جميع العالم أوله وآخره؛ ولذا كان هذا البحث (مسائل الاعتقاد في قصة موسى عليه السلام في الشريعة الإسلامية) محاولة مني لتوضيح ذلك، وبيان وحدة أصول الرسالات.

وقد تناولت في هذا البحث مسائل كثيرة اشتملت عليها قصة موسى عليه السلام؛ منها: مسألة توحيد الربوبية، وكيف كان كفر فرعون؟ هل هو كفر جحود أم كفر إنكار ؟، ومسألة توحيد الألوهية؛ وكيف واجه فرعون دعوة موسى عليه السلام ؟، ومسألة توحيد الأسماء والصفات؛ ومنهج أهل السنة والجماعة فيها؛ وتناول بعض الصفات؛ كصفة الكلام، وصفة الرؤية، وصفة المعية، وصفة النفس، والمحبة، والعين. وكذلك مسألة القضاء والقدر، ومراتب الإيمان بالقضاء والقدر، ومسألة الاحتجاج

بالقدر، والحكمة والتعليل لأفعال الله ﷻ. ومعجزات موسى، والفرق بينها وبين الكرامات. وقصة موسى والخضر، وهل الخضر نبي أم لا؟ وهل مازال حيًّا أم لا؟ ومسألة عصمة الأنبياء. عارضًا في كل ذلك لمعتقد أهل السنة والجماعة، وبيان المنهج القويم الذي ساروا عليه.

المسألة الأولى
توحيد الربوبية في قصة موسى عليه ﷺ

بداية فإننا أمام سؤال يطرح نفسه؛ ألا وهو: هل كان فرعون ينكر وجود الله ﷻ؟ وهذا السؤال سأتخذه مدخلاً لبيان أول مسألة من مسائل الاعتقاد في قصة موسى ﷺ؛ وهي مسألة توحيد الربوبية.

الفرع الأول
تعريف توحيد الربوبية

توحيد الربوبية هو: إفراد الله ﷻ بالخلق والملك والتدبير[1]، وإن شئت فقل: هو توحيد الله بأفعاله، وهذا تعريف أشمل لتوحيد الربوبية.

وهذا التوحيد يتضمن الإقرار بوجود الله ﷻ أولاً، ثم إفراده بهذه الأمور، بيد أنه قد وجد من أنكر هذا الوجود أصلاً، ولم يقر به، وبطبيعة الحال أنكر هذا الإفراد[2].

الفرع الثاني
حقيقة كفر فرعون

السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو: هل كان فرعون ينكر وجود رب العالمين؟ فكان كفره إنكارًا. أم أنه كان مقرًّا بهذا الوجود؟ فكان كفره جحودًا وعنادًا.

عند تناول مسألة توحيد الربوبية في تلك القصة نجد أننا نصطدم أولاً بمسألة سابقة لها؛ وهي: هل كان فرعون مؤمنًا بوجود الله ﷻ أم لا ؟.

حقيقة نستطيع أن نقرر أن فرعون كان مؤمنًا بوجود الله ﷻ في داخله،

وإن أظهر خلاف ذلك، وهذا يظهر لنا جليًّا من خلال النقاط التالية:

١) أنه عندما آمن سحرة فرعون قال لهم فرعون:﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾(سورة طه: ٧١). فبدأ كلامه بـــ:﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾، وختم كلامه بقوله:﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾، مما يدل على إيمانه بوجود الله ﷻ، لأنه لم ينكر وجود الذي آمنوا به أصلاً- الله ﷻ- في هذا الموضع، ثم إنه قارن بين عذابه وعذاب الله ﷻ، وفي ذلك إقرار منه بوجود رب سواه، بيد أنه أنكر تلك الربوبية لله ﷻ من باب العناد.

وهذا العناد إنما هو ناتج عن علمه بمعنى الربوبية، التي تعني: إفراد الخلق، والملك، والحكم، والتدبير لله ﷻ. وهذا الإفراد إذا ما أقر به فإن هذا يعني بطبيعة الحال انتقال قومه- وهو أولهم- من مرحلة الربوبية إلى مرحلة أعلى ألا وهي: توحيد الألوهية. مما يعني تجرده من تلك العظمة المزعومة التي كان يعيش فيها؛ فبعد أن كان الناس يعبدونه، ويقرون أنه لا إله إلا فرعون، فإنهم حينئذ يكفرون بذلك كله، ويتوجهون بعبادتهم لله ﷻ الواحد الأحد الفرد الصمد، وهذا كان السبب الرئيس في عناد فرعون، وعدم إيمانه برب العالمين.

٢) إقرار موسى عليه السلام نفسه بعلم فرعون بوجود الله ﷻ؛ حيث قال:﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (سورة الإسراء: ١٠٢). فكأن موسى عليه السلام رماه بأنه يكفر عنادًا، وأن لديه علم يقين بوجود الله ﷻ، وأن الله ﷻ هو الخالق لهذا الكون، والمدبر له.

٣) والذي يدلك أكثر على أن فرعون كان مؤمنًا بوجود الله ﷻ، وأن كفره هذا ما كان إلا عنادًا واستكبارًا، قول قوم فرعون- وبالطبع وافقهم فرعون نفسه على تلك المقولة- الدال على علو درجة الاستكبار عندهم: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ٤٧). فالقضية عندهم ليست قضية وجود الله ﷻ، وإنما هي قضية عدم القدرة على تخيل أن هناك من هو أفضل منهم، خاصة وأن موسى وأخيه هارون كانا من قوم يعلنون الولاء؛ بل العبادة المحضة

لفرعون، فكيف لمثل هؤلاء أن يعلوا عليهم! وتتحول الأمور إلى الضد، وتسير عكس ما كانت عليه.

٤) استدلال موسى عليه السلام بالآيات الكونية على ربوبية الله ﷻ، ومثل هذا الاستدلال لا يكون إلا بعد التأكد من أن فرعون في داخله لديه تمام العلم اليقيني بربوبية الله ﷻ، بيد أنه يستكبر ويعاند، ومن ذلك قوله:﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى. قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى. كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى. مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى. وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ (سورة طه: ٤٩ــ ٥٦).

قال الشيخ حافظ الحكمي: " كفر الجحود: هو ما كان بكتمان الحق وعدم الانقياد له ظاهرا مع العلم به ومعرفته باطنا ككفر فرعون وقومه بموسى، وكفر اليهود بمحمد ﷺ. قال الله ﷻ في كفر فرعون وقومه:﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (سورة النمل: ١٤)"[٣].

ففرعون كان مؤمنًا بوجود الله ﷻ، بيد أنه كان يكابر ويعاند لأنه يعلم أن ربوبيته المزعومة ستزول باعترافه بوجود الله ﷻ، فشركه كان شرك تعطيل؛ فلا يظهر فرعون إيمانًا بوجود الله ﷻ، ولا يظهر إيمانًا بأن الله هو الخالق والمدبر والمالك لهذا الكون؛ ولهذا جاءت إجابة موسى عليه السلام في الآيات السابقة لإثبات هذه الأمور لله ﷻ، وكذلك قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة الشعراء: ٢٣- ٢٨).

فجواب موسى عليه السلام هذا- من خلال آيات سورتي طه والشعراء- يدور حول أمرين؛ الإقرار، والتحدي:

أما الأمر الأول: فموسى عليه السلام يقر بأن الله ﷻ هو الذي صور كل الخلق

على الهيئة التي ارتضاها لهم، وأنه هو الذي سهل لهم أمر ما يحتاجونه لحياتهم، وأن الله ﷻ هو خالق كل شيء بما فيهم فرعون نفسه.

وأما الأمر الثاني: فهو أمر ضمني يفهم من الكلام، وهو تحدي موسى عليه السلام لفرعون على أن يأتي بمثل ما أتي الله ﷻ به؛ ففيه دعوة لفرعون أن يخلق أي شيء وأن يحدد له صورته وهيئته، وأن يوفر له سبل الحياة، أو أن يأتي بمثل هذا النظام الدقيق الذي يسير عليه الكون؛ من تتابع الليل والنهار، والشمس والقمر، وتلك الأرض الممهدة، وهذا الماء الذي ينزل من السماء بأمر الله ﷻ، ليحيي الأرض بعد موتها، وليسقي منها النبات والحيوان والإنسان، وهذا كله من أعظم الأدلة على تفرد الله ﷻ بالربوبية وحده، فإن لم تأت بمثل هذا يا فرعون فعلى أي شيء تدعي أنك رب العالمين!.

المسألة الثانية

توحيد الألوهية في قصة موسى عليه السلام

الفرع الأول

تعريف توحيد الألوهية

عرف الصنعاني توحيد الألوهية بقوله:"توحيده بأفعال العباد؛ كالدعاء، والخوف، والرَّجاء، والتوكُّل، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذَّبح، والنَّذر، وغيرها من أنواع العبادة التي يجب إفراده بها، فلا يُصرف منها شيء لغيره، ولو كان ملَكاً مقرَّباً، أو نبيًّا مرسَلاً، فضلاً عمَّن سواهما"[٤].

الفرع الثاني

وسائل فرعون في صرف قومه عن عبادة الله ﷻ.

لم يؤمن فرعون بتوحيد الربوبية- كما علمنا- رغم ما قدمه له موسى عليه السلام من أدلة وبراهين كافية لإيمان ذوي الحجا؛ بيد أنه ضرب بهذا كله عرض الحائط، وأحسب أن السبب في ذلك كله هو خوفه من زوال ملكه بزوال ربوبيته التي ادعاها؛ ولذلك استخدم فرعون كافة الوسائل المتاحة أمامه لصد دعوى موسى عليه السلام؛ ولإبعاد قومه عن عبادة الله الواحد الأحد، للحفاظ على أركان ملكه.

وأول هذه الوسائل: سؤاله عمن سبقه من قرون فانية، فسأل فرعون قائلاً:﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ (سورة طه: ٥١). وهذا مثل قول قوم نوح وعاد وثمود؛ حيث قالوا:﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (سورة إبراهيم: ١٠)، وكقول مشركي قريش:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٧٠). وهذا دأب جميع الأقوام؛ حيث قال ربنا ﷻ:﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (سورة الزخرف: ٢٣).

والمختلف في قول فرعون أنه هو الذي سأل عن القرون السابقة؛ ولعله أراد من وراء هذا السؤال أمرًا خبيثًا؛ ألا وهو الوقيعة بين موسى عليه السلام والملأ من قوم فرعون؛ لأن موسى عليه السلام إذا كان جوابه: أن تلك القرون كانت كافرة ولم تكن على التوحيد، فإن في هذا إسفاف لما كان يعبده هؤلاء، فيثور عليه الملأ فيكذبونه قبل أن يسمعوه، وهذا ما كان يتمناه فرعون.

أما إن كان جواب موسى عليه السلام: أن تلك القرون كان على التوحيد- وهذا الجواب بعيد- فإن هذا لا يضر فرعون في شيء؛ لأنه وحد المعبودات في شخصه، وأصبح هو أعلاها، والدليل على ذلك قول فرعون لقومه:﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ (سورة النازعات: ٢٤).

ولكن موسى عليه السلام قطع عليه آماله، وباغته بجواب ما كان ينتظره، فأبطل حيلته، وأحال علم هذه القرون إلى رب العالمين، الذي لا يغفل ولا ينام؛ فكان جواب موسى عليه السلام:﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى﴾ (سورة طه: ٥٢).

وثان هذه الوسائل التي استخدمها فرعون: السخرية من دعوة موسى عليه السلام، وذلك بالتشكيك في عقل موسى عليه السلام، ورميه بالجنون؛ وهذا يظهر جليًّا في قول فرعون لقومه:﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (سورة الشعراء: ٢٥- ٢٧).

قال أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ:"كأنَّه قال: ألا تستمعُون ما يقولُه فاستمعُوه وتعجَّبوا منه؛ حيثُ يدَّعي خلافَ أمرٍ محقَّقٍ لا اشتباه فيه يُريد به ربوبيةَ نفسِه ﴿قَالَ﴾ عليه السلام تصريحًا بما كان مُندرجًا تحت جوابيه السَّابقينِ ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الأولين﴾ وحطّاً له من ادِّعاء الرُّبوبيَّةِ إلى مرتبةِ المربُوبيَّةِ.

﴿قَالَ﴾ أي فرعونُ لمَّا واجهه مُوسى عليه السلام بما ذُكر غاظه ذلك، وخافَ من تأثُّر قومِه منه، فأراهُم أنَّ ما قاله عليه السلام ممَّا لا يصدرُ عن العُقلاء؛ صدَّاً لهمُ عن قبوله، فقال مؤكِّداً لمقالتِه الشَّنعاء بحرفَيْ التَّأكيدِ:﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾؛ ليفتنهم بذلك، ويصرفهم عن قبولِ الحقِّ، وسَّماهُ رسولاً بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مُخاطبيه ترفُّعًا من أنْ يكونَ مُرْسَلاً إلى نفسِه"[٥].

وثالث هذه الوسائل: المنّ على موسى عليه السلام بما فعله معه أيام صباه؛ وذلك حينما ربى فرعون موسى في بيته، ولم يقتله كما قتل أطفال بني إسرائيل، ليس هذا فحسب؛ بل قتله لنفس من قوم فرعون، ثم بعد ذلك يكفر موسى عليه السلام بهذه النعم التي أنعم بها فرعون عليه، ويأتي إليه ليكذبه في ربوبيته ويثبتها لرب العالمين.

قال ربنا عز وجل حكاية عن فرعون:﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١٨-١٩).

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللهُ:" قول فرعون لموسى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ هو على جهة المن عليه والاحتقار؛ أي: ربيناك صغيرًا، ولم نقتلك في جملة من قتلنا، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ فمتى كان هذا الذي تدعيه"[٦].

ورابع تلك الوسائل: اتهام موسى عليه السلام بأنه ساحر، وأنه ما أراد إلا سوءًا؛ ولذا استعان فرعون بسحرته، لعلهم يجدون له الخلاص مما هو فيه، ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى. قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى. فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى. قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى. فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى.

قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى. فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ (سورة طه: ٥٧- ٦٤).

وخامس تلك الوسائل: بعد أن فشل فرعون في التغلب على موسى عليه السلام بالسحر، وبعد أن آمن السحرة لله رب العالمين، حاول اتباع أسلوب جديد للدفاع عن ربوبيته المزعومة، فنفى علمه بألوهية غيره، وأثبتها لنفسه، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (سورة القصص: ٣٨).

وقد لجأ فرعون إلى هذا الأسلوب الذي يحمل في طياته استعطافًا؛ لعله يفلح معهم، ويجد من يتراجع من سحرته عن الإيمان برب موسى عليه السلام. وهذا الادعاء الذي ادعاه فرعون من ربوبيته وألوهيته هو السبب في هلاكه، وانتقام الله ﷻ منه، فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة، وكان قد وصل به الحد إلى أنه هدد موسى عليه السلام بذلك؛ فقال:﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٩).

وسادس تلك الوسائل: التلبيس على قومه بأن له ملك مصر والأنهار تجري من تحته، وهذا التلبيس ما كان ليصدر من فرعون إلا نتيجة استخفافه بقومه، وعدم مراعاة عقولهم، قال ربنا ﷻ:﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ. فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ. فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (سورة الزخرف: ٥١- ٥٤).

أراد فرعون من هذا أن يبين فضله على موسى، ويريدُ به استعظامَ مُلكِه؛ إذ هو ملك مصر، وصاحب الأنهار والنعم، وموسى لا يملك من دنياه شيئًا، فلو أن إله موسى يكون حقًا كما يزعم، ما ترك موسى بلا ملك وجاه، أو من غير ملائكة يؤيدونه، وينصرونه، ويحققون له الأمنيات.

وهذا الذي افتخر به فرعون يدل على جهله البليغ؛ حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

ففرعون استخف عقول قومه بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، فهي ليست دليلاً على صدق ما يقول، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول. فأي دليل يدل على أن فرعون محق، لكون ملك مصر له، وأنهاره تجري من تحته؟! وأي دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى؟! لقلة أتباعه، وثقل لسانه، وعدم تحلية الله له. لكن فرعون لقي ملأ لا عقول عندهم، ولا تفكير؛ ولذلك استحقوا أن يكونوا فاسقين.

وسابع تلك الوسائل: التهديد والوعيد، وهذا الأسلوب لجأ إليه فرعون- قبحه الله- بعد أن عجز عن مجاراة موسى عليه السلام، وبعد أن نفذت حيله، وهذا الأسلوب لا يلجأ إليه إلا كل ضعيف، قليل الحيلة، وهذا التهديد وذاك الوعيد طال موسى عليه السلام، وكذلك قوم سحرة فرعون بعد أن أعلنوا إيمانهم بالله ﷻ.

قال الله ﷻ حكاية عن فرعون:﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٩).

وهذا التهديد بالسجن كان في أول الأمر، ولكن عندما أصر موسى على دعوته، وظهر لفرعون أنه لن يتراجع عن ذلك، صعَّد فرعون من تهديده ووعيده حتى وصل به الحال إلى التهديد بقتل موسى عليه السلام.

قال ﷻ:﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (سورة غافر: ٢٦).

هذا كان عن تهديده لموسى عليه السلام ، أما عن تهديده للسحرة، فقد كان أشد وأبلغ؛ لعلهم يرجعون عن إيمانهم.

قال الله ﷻ حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ (سورة طه: ٧١).

وقال ﷻ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٢٣- ١٢٤).

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وعناده، وبغيه، ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم، وغُلِب كل الغلب، شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهددهم وأوعدهم، وقال:﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾؛ أي: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: وما أمرتكم بذلك، وافتتم عليّ في ذلك. وقال قولا يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بَهْت وكذب:﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾؛ أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه عليّ وعلى رعيتي، لتظهروه، كما قال في الآية الأخرى:﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم أخذ يتهددهم فقال:﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: لأجعلنكم مثلة، ولأقتلنكم، ولأشهرنكم...

وقوله:﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾؛ أي: أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه"[٧].

المسألة الثالثة

توحيد الأسماء والصفات في قصة موسى عليه السلام

الفرع الأول

تعريف توحيد الأسماء والصفات

توحيد الأسماء والصفات يعني: إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه أو أثبته له نبيه محمد ﷺ من الأسماء والصفات من غير تحريف، أو تعطيل، أو تمثيل، أو تكييف، ونفي ما نفاه الله ﷻ عن نفسه أو نفاه نبيه محمد ﷺ عنه[٨]. لقوله ﷻ:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (سورة الشورى: ١١).

والناس انقسموا في صفات الله ﷻ لثلاثة أقسام[٩]:

القسم الأول: المعطلة؛ وهو نوعان: تعطيل كلي، وتعطيل جزئي؛ أما النوع الأول

فيمثله الجهمية أتباع الجهم بن صفوان، وأما النوع الثاني فيمثله المعتزلة والأشاعرة.

القسم الثاني: المشبهة؛ وهم الذين شبهوا صفات الله ﷻ بصفات خلقه؛ لأنهم ظنوا أن الاتفاق في الأسماء والصفات يستلزم الاتفاق في المسميات.

القسم الثالث: وهم وسط بين طرفي نقيض؛ أعني أهل السنة والجماعة، ومنهجهم هو إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه من الأسماء والصفات أو أثبته له لنبيه ﷺ من غير تحريف، أو تعطيل، أو تمثيل، أو تكييف، ونفي ما نفاه الله ﷻ عن نفسه، أو نفاه عنه نبيه ﷺ.

وقد ذكر لنا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته، فقال:"من سبيلهم في الاعتقاد: الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه، التي وصف بها نفسه، وسمى بها نفسه في كتابه، وتنزيله، أو على لسان رسوله ﷺ، من غير زيادة عليها، ولا نقص منها، ولا تجاوز لها، ولا تفسير لها ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، ولا سمات المحدثين؛ بل أمروها كما جاءت، وردوا علمها إلى قائلها، ومعناها إلى المتكلم بها"[١٠].

فأهل السنة والجماعة يثبتون المعنى ويفوضون الكيف؛ بل أعلنوا يأسهم من إدراك كيفية صفات الله ﷻ؛ إذ إنهم لا يدركون ذات الله ﷻ، فكيف لهم أن يدركوا صفات ذات يجهلونها؛ لقوله ﷻ:﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (سورة طه: ١١٠).

وهم منهيون عن تتبع ما لا يدركونه، أو هو مخفي عنهم؛ لقوله ﷻ:﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (سورة الإسراء: ٣٦). وكيفية هذه الصفات داخلة في باب (ما ليس لنا به علم) فكيف لنا بمعرفة كيفيتها، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (سورة الشورى: ١١).

هذا، وقد وردت في قصة موسى عليه السلام بعض صفات ربنا ﷻ، يحسن بنا الوقوف معها لنثبتها، ولنرد على من عطلها أو حرفها، لنسير في ركب أهل السنـــة

والجماعة، وعلى منهجهم. ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة يوسف: ١٠٨).

الفرع الثاني
صفات الله ﷻ في قصة موسى عليه السلام

١) صفة الكلام:

صفة الكلام من أكثر صفات ربنا ﷻ تعرضًا للجدل والخصومة بين الفرق المختلفة، وهذا مما يعجب له المرء؛ خاصة وأن الله ﷻ قد أثبتها لنفسه في كتابه الكريم في أكثر من موضع، وكلها يدور حول كلام ربنا ﷻ لنبيه موسى عليه السلام، فكيف لنا بعد إثبات الله ﷻ صفة الكلام لنفسه أن نتأولها أو نعطلها.

ومن الأدلة القرآنية الواردة في قصة موسى عليه السلام التي تثبت صفة الكلام لربنا ﷻ ما يلي:ـــ

١) قول ربنا ﷻ:﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (سورة النساء: ١٦٤).

ففي هذه الآية أضاف الله ﷻ الكلام لنفسه؛ فقال:﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ﴾، ليس هذا فحسب؛ بل أكده بالمصدر حتى لا يتوهم أن الكلام لم يكن على حقيقته.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: " قوله ﷻ:﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر معناه التأكيد، يدل على بطلان من يقول: خلق لنفسه كلامًا في شجرة فسمعه موسى؛ بل هو الكلام الحقيقي الذي يكون به المتكلم متكلمًا. قال النحاس: وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازًا "[١١].

وقال أبو السعود رَحِمَهُ اللهُ: " قوله ﷻ:﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدرٌ مؤكدٌ رافعٌ لاحتمال المجاز. قال الفراء: العربُ تسمّي ما وصل إلى الإنسان كلامًا بأي طريقٍ وصل ما لم يؤكَّدْ بالمصدر، فإذا أُكّد به لم يكنْ إلا حقيقةُ الكلامِ "[١٢].

فمن قال: قتلت العدو قتلاً، لا يفهم من كلامه إلا القتل الحقيقي، الذي يعني انفصال الروح عن الجسد، بخلاف قول القائل: قتلت العدو، فسكت؛ فإنه يحتمل القتل الحقيقي، ويحتمل الضرب الشديد المؤلم جدًا.

٢) وقوله ﷻ:﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ (سورة الأعراف: ١٤٣).

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللهُ: " قوله ﷻ:﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ أي: أسمعه كلامه من غير واسطة "[١٣].

وقال محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ:" لَمَّا جاء موسى للميقات الذي وقَّتْنَاه له للكلام وإعطاء الشَّريعة، وكلَّمه ربُّه ﷻ مِنْ وراء حجاب بغير واسطة الملك، استَشْرَفَت نفسُه الزَّكيَّة العالية للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية "[١٤].

٣) وقوله ﷻ: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٤٤). قال الطبري: " قوله ﷻ: ﴿وبكلامي﴾ أي: كلمتك، وناجيتك دون غيرك من خلقي "[١٥].

٤) وقوله ﷻ:﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١٠).

٥) وفي حديث احتجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وفيه قول آدم لموسى:"أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ تَعَالَى بِرِسَالاتِهِ وَبِكَلامِهِ"[١٦].

٦) وفي حديث الشفاعة حيث يذهب إلى الأنبياء ليشفعوا لهم، وفيه أنهم:"يَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى؛ فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ"[١٧].

فهذه الآيات والأحاديث كلها تثبت أن موسى عليه السلام كلم ربه مشافهة مباشرة بلا واسطة، وهذا ثابت بشهادة ربنا ﷻ، وكلام الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، فصفة الكلام لرب البرية والأنام ثابتة بنص كتاب ربنا ﷻ، وسنة نبينا ﷺ، ولا نجد مجالاً لنفيها أو تأويلها، ولعلنا نلحظ أنها جاءت بصيغ لا تحتمل التأويل، وهذا ما أكده أهل العلم كما سبق.

قال الحافظ الحكمي رَحِمَهُ اللهُ معلقًا على هذه الأدلة:"فأيُّ كلامٍ أَفصحُ مِنْ كلام اللَّه تعالى وكلام رسوله ﷺ وأيُّ بيانٍ أوضح من بيان اللَّه ورسوله، وبأيِّ برهان يقنَعُ مَن لم يقْنَع بذلك:﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الجاثية: ٦).

وفي هذا أعلى دَلالَةٍ، وأبينُها، وأوضَحُهَا على ثبوت صفة الكلام لربنا ﷻ، وأنه يتكلم إذا شاء بما يشاء، وكيف يشَاء، بكلام يسمعه من يشاء، أسمعه موسى عليه السلام كيف شَاء، وعلى ما أراد.

وقد ثبت بالكتاب والسنة ندَاؤه ﷻ الأبوين عليهما السلام؛ إذ يقول ﷻ:﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة الأعراف: ٢٢) وأنَّ الملائكة تسمع كلام اللَّه بالوحي كما قال ﷻ:﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (سورة سبأ: ٢٣)"[١٨].

وكلنا نعلم أن معبود قوم موسى الذي اتخذوه من حليهم مما عيب عليه عدم الكلام؛ بل يستدل بذلك على أنه ليس بإله، إذ يقول الله تعالى:﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ (سورة الأعراف: ١٤٨).

قال السفاريني:"إن صفة الكلام لله ﷻ ثابتة بإجماع الأنبياء على ذلك، فيتكلم إذا شاء، ومتى شاء بلا كيف، فإن الكلام صفة كمال لا نقص فيه، فالرب أحق أن يتصف بالكلام من كل موصوف بالكلام، إذ كل كمال لا نقص فيه يثبت للمخلوق، فالخالق أولى به"[١٩].

ورغم ذلك فقد زلت أقدام أقوام، وانحرفت أفهامهم عن الطريق المستقيم في فهم كتاب ربنا ﷻ، وسنة نبينا ﷺ؛ فالجهمية ينكرون صفة الكلام حقيقة، ومنهم من يقر باللفظ ولكن يقول بأن الله خلق الكلام في غيره، كقول المعتزلة الذين يقولون: إن الله تعالى كلم موسى حقيقة، وتكلم حقيقة، وحقيقة الكلام عندهم أنه خلق الكلام في غيره كما خلقه في الشجرة حين كلم موسى.

وقد تخبط الفريقان المخالفان في مسألة تكليم الله ﷻ لموسى عليه السلام، فقالت المعتزلة: إن الذي تكلم هو الشجرة، وبكلام مخلوق في الشجرة ، وقالت الأشاعرة: إن موسى سمع كلام الله الأزلي القائم به ﷻ. وهذا كله ضلال نشأ عن ضلالهم في مذهبهم في صفة الكلام لله ﷻ.

فهؤلاء الذين زعموا أن كلام الله ﷻ حل في شجرة، فكانت الشجرة حاوية له، لزمهم أن تكون الشجرة متكلمة بذلك الكلام، وأن الشجرة قالت: يا موسى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني. وهذا مما لا يعقله عاقل.

ومما يحكى في هذا الصدد أن بعض المعتزلة قال لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة: أريد أن تقرأ:﴿وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ بنصب لفظ الجلالة، ليكون موسى هو المتكلم، لا "الله"! فقال له أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى:﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾! فبهت المعتزلي.

فالمعتزلة والجهمية، زعموا أن معنى كونه ﷻ متكلمًا: أنه خالق للكلام في غيره، وليس الكلام صفة قائمة به، فكلام الله عندهم شيء منفصل عنه؛ لذلك فهو مخلوق؛ ومن هنا قالوا: إن القرآن الذي هو كلام الله تعالى مخلوق، فكما أنه خلق الكون، والكون منفصل عنه، فكذلك أيضاً تكلم الله ﷻ بالقرآن والقرآن مخلوق، منفصل عنه، فجاءت مقالتهم الضالة المضلة المعروفة بخلق القرآن[٢٠].

والأشاعرة قالوا في مقابل ذلك: نثبت لله صفة الكلام، لكن الكلام الذي نثبته لله هو الكلام النفسي القائم بذاته، ولا ينفصل عنه، فالله ﷻ متصف بصفة الكلام أزلاً، وكلامه قائم بذاته، لكن الكلام عندهم هو المعنى القائم في النفس فقط، ومن ثم قالوا: إنه بغير حرف وصوت، وقالوا: إنه لا يتكلم بإرادته ومشيئته[٢١].

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل الكلام من صفات النقص أو من صفات الكمال؟! أليس المخلوق الذي يتصف بالكلام أفضل من الذي لا يتكلم؟ الجواب "بلى" بإجماع العقلاء.

فهل تُسوّغ عقول المعطلين والمتأولين أن يكون المخلوق أكمل من الخالق؟ أفليس الذي يعطي الكمال أولى بأن يتصف بالكمال على أكمل وجه، بحيث لا يشاركه أحد في خصائص ذلك الكمال؟!

إذًا، فعقيدة أهل السنة والجماعة في كلام ربهم ﷻ: أنهم يرون أن كلام الله ﷻ على حقيقته، وأنه ﷻ يتكلم بحرف وصوت، وأن كلامه لا يشبه كلام خلقه، ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ويرون أن إثبات الكلام نفسيًّا هو إضافة

نقص إلى الله ﷻ، إذ إن الأخرس يتكلم هو الآخر كلامًا نفسيًّا؛ حيث له خواطر يريد التكلم بها، ولكنه مع ذلك لا يستطيع التكلم بما يجول في نفسه، فالله ﷻ منزه عن مثل هذا العجز، الذي يعتبر نقصاً في المخلوق، والله ﷻ منزه عن كل نقص؛ بل هو متصف بكل صفات الكمال، ومتكلم بمشيئته وقدرته وإرادته، متى شاء كيف شاء.

٢) صفة الرؤية:

وهذه الصفة على شقين؛ رؤية الله ﷻ في الدنيا ورؤيته ﷻ في الآخرة.

أما رؤية الله ﷻ في الدنيا بالنسبة لقصة موسى عليه السلام فهي مسألة محسومة، ولا نزاع فيها؛ لأن الله ﷻ قضى فيها بقول لا يحتمل التأويل، وجاء بدليل عملي يبرهن فيه على عدم قدرة موسى عليه السلام على رؤيته ﷻ، ويظهر هذا جليًّا من خلال قوله ﷻ:﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٤٣).

فقوله ﷻ:﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أراد به في الدنيا لا في الآخرة؛ ومما يدل على ذلك قول الله ﷻ:﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾. فلما كان الله ﷻ قادرًا على أن يجعل الجبل مستقرًا فقد دل ذلك على أن رؤية الله ﷻ في الدنيا مستحيلة.

قال أبو الحسن الأشعري:"ودليل آخر مما يدل على جواز رؤية الله ﷻ بالأبصار[٢٢] قول الله تعالى لموسى:﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾، فلما كان الله ﷻ قادرًا على أن يجعل الجبل مستقرًا كان قادرًا على الأمر الذي لو فعله لرآه موسى، فدل ذلك على أن الله ﷻ قادر على أن يري عباده نفسه، وأنها جائزة رؤيته.

فإن قال: فلِمَ ما قلتم: إن قول الله ﷻ:﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ تبعيد للرؤية؟! قيل له: لو أراد الله ﷻ تبعيد الرؤية لقرن الكلام بما يستحيل وقوعه، ولَمْ يقرنه بما يجوز وقوعه، فلما قرنه باستقرار الجبل؛ وذلك أمر مقدور لله ﷻ دل

ذلك على أنه جائز أن يرى الله ﷻ"[٢٣].

وفي هذا أبلغ رد على هؤلاء الذين يزعمون أنهم يرون ربهم في الدنيا، أو أنه ﷻ يأتيهم في المنام، أو أمثال تلك الخرافات، فهل يعقل أن يقول الله لنبيه موسى عليه السلام: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ ويسمح لأمثال هؤلاء برؤيته؟!.

والسبب في عدم رؤيته ﷻ في الدنيا هو: عدم تحمل النفس البشرية ذلك؛ بدليل أنه ﷻ لما تجلى للجبل صار الجبل هباءً منثورًا، فالجبل مع قوته وصلابته ما تحمل تجلي رب العزة ﷻ، فكيف لنا نحن البشر أن نتحمل، وفينا ما فينا من ضعف ووهن؟ فهذا دليل على أن المانع هو ضعف القوى البشرية عن رؤيته؛ ولذلك فإن هذه القوى تضاعف في الجنة حتى يتمكن أهلها من رؤيته ﷻ.لأن طبيعتهم تتغير، فتصبح لا تقبل الموت، ولا تقبل النقص، لأن الخلود هو وعد الرحمن في الدار الآخرة، فيثبتون لرؤية الله ﷻ؛ بل تكون الرؤية هي أعلى نعيمهم في الجنة.

أما في الدنيا فلا يمكن لأحد أن يرى الله ﷻ، والنبي ﷺ ليلة أسري به أيضًا لم ير الله ﷻ، وإنما رأى نورًا، والنور هذا هو الحجاب الذي جاء في الحديث:"حجابه النور لو كشفه لأحرقت سَبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه"[٢٤].

فقد سئل النبي ﷺ هل رأيت ربك قال (رأيت نورًا)[٢٥] وفي رواية أخرى قال (نورٌ أنى أراه)[٢٦] يعني ثَمَ نور فأنى أراه يعني كيف أراه ؟.

فالرؤية عند أهل السنة أنها لا تكون في الدنيا، ولا في البرزخ، وإنما هي يوم القيامة، وهذه الرؤية رؤية من غير إحاطة؛ لأن الله ﷻ لا يحاط به، قال ﷻ:﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٣).

أما المخالفون لأهل السنة والجماعة في هذه المسألة فهم ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: طائفة تزعم أن الرؤية ممكنة في الدنيا وفي الآخرة، وهؤلاء هم الصوفية ومن نحا نحوهم. ولا يخفى على أحد كذب هذا الادعاء لمخالفته صريح كتاب ربنا ﷻ، وصحيح سنة نبينا ﷺ.

الطائفة الثانية: وهي طائفة الخوارج والمعتزلة ومن شابههم من الذين يقولون: إن رؤية الله ﷻ لا يمكن أن تكون لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهم محقون في النصف الأول من قولهم الخاص باستحالة رؤية الله ﷻ في الدنيا. أما النصف الثاني الخاص باستحالة رؤيته ﷻ في الآخرة فهذا مما يضرب به عرض الحائط؛ لمخالفته الأدلة من الكتاب والسنة كما سيأتي.

الطائفة الثالثة: وهي طائفة الأشاعرة والماتريدية، فأثبتوا رؤية المؤمنين لربهم ﷻ يوم القيامة، لكنهم يقولون نظر لا إلى جهة، فيجعلونها رؤية بقُوىً يُحدثها الله ﷻ في الأجسام يوم القيامة لا إلى جهة، بإدراك يُجعل في العين، يعني أن العين لا تنظر، ولكن الله ﷻ يخلق إدراكًا في العين لذلك. فعندهم إثبات الرؤية مع سلب صفات الرؤية، إثبات الرؤية إلى غير جهة، وهذا غير مُتصور، وغير معقول[٢٧].

فالمؤمنون يرون ربهم في الآخرة بأبصارهم؛ قال الله ﷻ:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (سورة القيامة:٢٢ــ٢٣)، وقال ﷻ:﴿كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (سورة المطففين:١٥)، فلما حجب غير المؤمنين عن رؤية ربهم، دل ذلك بمفهوم المخالفة على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة، وإلا لم يكن بينهما فرق.

ورؤية الله تعالى في الآخرة ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف:

من الكتاب: قوله ﷻ:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (سورة القيامة:٢٢ــ٢٣)، وقوله ﷻ:﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ (سورة المطففين: ٢٣، ٣٥)، وقوله ﷻ:﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (سورة يونس: ٢٦).

ومن السنة: حديث بن عبد الله البجلي ﷺ، أن النبي ﷺ قال:"إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ"[٢٨].

وقال أبو عمرو الداني:" معنى قوله :﴿لن تراني﴾؛ أي: في الدنيا؛ لأن موسى إنما سأله الرؤية في الدنيا، وكان ذلك جوابًا لسؤاله"[٢٩].

وقد رد عثمان الدارمي على المريسي الذي أنكر رؤية الله ﷻ في الآخرة بقوله:"ألا ترى أن أصحاب موسى سألوا موسى رؤية الله في الدنيا إلحافًا فقالوا:﴿لن

نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ (سورة البقرة: ٥٥)، ولم يقولوا حتى نرى الله في الآخرة ولكن في الدنيا. وقد سبق من الله القول بأنه:﴿ لا تدركه الأبصار﴾ أبصار أهل الدنيا فأخذتهم الصاعقة بظلمهم"[٣٠].

٣) صفة المعية:

كلمة (مع) في معاجم اللغة تدل على المصاحبة والمقارنة، وهذه المقارنة أو المصاحبة أعم من أن تكون بالذات، فلا تقتضي أن يكون أحد الشيئين مختلطاً بالآخر[٣١].

وكلمة (مع) قد وردت أكثر من مرة في قصة موسى عليه السلام كلها تدل على معية الله ﷻ لنبيه موسى عليه السلام، ومن ذلك: قوله ﷻ:﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (سورة طه: ٤٦). وقوله ﷻ:﴿قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (سورة الشعراء: ١٥). وقوله ﷻ:﴿قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (سورة الشعراء: ٦٢).

فلفظ المعية قد استعمل في القرآن الكريم في مواضع عدة، ويختلف معناها من موضع لآخر، وذلك بحسب اختلاف دلالتها في كل موضع، وهي على معنيين؛ هما:

المعنى الأول: المعية العامة.

وهي معية علم واطلاع وإحاطة؛ أي أن الله ﷻ معنا بعلمه، ومطلع على خلقه، ومحيط بهم، ومن أمثلة ذلك: قوله ﷻ:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة المجادلة: ٧).

ففي هذه الآية الكريمة يبين الله ﷻ اتساع علمه وإحاطته بما يدور بين البشر في السر والعلن، فقد افتتحها ربنا ﷻ بالعلم، وختمها بالعلم؛ ومن هنا جاء تفسير أهل العلم للمعية في هذه الآية بمعية علم واطلاع. قال الطبري مفسرًا قوله ﷻ:﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾:"يعني: أنه مشاهدهم بعلمه، وهو على عرشه"[٣٢]. وقال

القرطبي مفسرًا الآية نفسها:"يعلم ويسمع نجواهم، يدل عليه افتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم...المعنى: أن سمع الله محيط بكل كلام، وقد سمع الله مجادلة المرأة التي ظاهر منها زوجها"[٣٣].

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية إجماع أهل العلم على تفسير هذه الآية بهذا المعنى، فقال:"علماء الصَّحابة والتَّابعين، الَّذين حُمِلَ عنهم التَّأويل قَالوا فِي تأويل هذه الْآية: هو على العرش وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يحتج بقوله"[٣٤].

ومن أمثلة هذه المعية أيضًا قوله ﷻ:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة الحديد: ٤).

هذه الآية قد جمعت بين صفتين لله ﷻ قد يعتقد معتقد أنهما متعارضتان؛ وهما: العلو والمعية، وحقيقة ليس بين الاثنين تناقض البتة؛ لأنه من الممكن أن يجمع بين العلو والمعية في آن واحد في حق المخلوقات، فمثلاً: القمر، والشمس، والسماء، هذه المخلوقات تتصف بالعلو، وفي الوقت نفسه هي معنا أينما ذهبنا، فإذا كان الأمر ذلك في حق المخلوقات، فما بالنا بخالق المخلوقات، ولله المثل الأعلى، وعلى هذا فلا حجة للمخالفين في ظاهر هذه الآية.

المعنى الثاني: المعية الخاصة.

وهي معية الحفظ، والنصرة، والعصمة من الأعداء، والتأييد، وهي معنى زائد على العلم والإحاطة، وسميت خاصة لأنها تخص أنبياء الله وأولياءه؛ مثل قوله تعالى:﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (سورة التوبة: ٤٠)، وقوله ﷻ:﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (سورة النحل: ١٢٨)، وقوله ﷻ:﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (سورة طه: ٤٦)، وقوله ﷻ:﴿قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ (سورة الشعراء: ١٥)، وقوله ﷻ:﴿قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (سورة الشعراء: ٦٢). فهذه المعية إنما تكون لأهل الإيمان

بتسديدهم، وتوفيقهم، وإعانتهم، ونصرتهم.

يقول ابن كثير في تفسير قوله ﷻ:﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾:"أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم، ولا يتنفس، ولا يبطش إلا بإذني، وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي، ونصري، وتأييدي"[٣٥].

وينقل شيخ الإسلام ابن تيمية إجماع السلف على نفي مقولة: إن الله بذاته في كل مكان، فيقول:"فكل من قال: إن الله بذاته في كل مكان، فهو مخالف للكتاب، والسنة وإجماع سلف هذه الأمة وأئمتها، مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده، ولصريح المعقول وللأدلة الكثيرة، وهؤلاء يقولون أقوالاً متناقضة"[٣٦].

إذ لا يوجد نص في كتاب ربنا صريح أو سنة نبيا صحيح يشير إشارة، ولو خفية إلى أن الله في كل مكان بذاته؛ بل النصوص تدل دلالة واضحة على خلاف ذلك، وهذا هو معنى المعية كما وضح ذلك علماء الأمة.

٤) صفة النفس:

صفة النفس من الصفات الثابتة بصريح كتاب ربنا ﷻ وصحيح سنة نبينا ﷺ، وقد وردت في قصة موسى عليه السلام؛ حيث قال ربنا ﷻ:﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (سورة طه: ٤١). وفي غير قصة موسى عليه السلام؛ ومن أمثلة ذلك: قول ربنا ﷻ:﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (سورة آل عمران: ٢٨، ٣٠). وقوله ﷻ حكاية عن عيسى عليه السلام:﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ (سورة المائدة: ١١٦).

وقوله ﷻ في الحديث القدسي:"أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ"[٣٧]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ عَلَى نَفْسِهِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي"[٣٨]. وحديث محاجة موسى وآدم عليهما السلام، الذي قال فيه آدم لموسى:"أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَاصْطَفَاكَ لِنَفْسِهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ التَّوْرَاةَ"[٣٩].

فهذه الآيات والأحاديث تثبت صفة النفس لله ﷻ، وأهل السنة والجماعة يثبتونها لله ﷻ على الوجه الذي يليق بجلاله وعظمته، كما ينبغي ألا نفهم منها أن لله نفسًا منفصلة عن ذاته ﷻ، كما يقال للمخلوق: إن له جسدًا، وله روحًا تسمى نفسًا.

بيد أن صفة النفس اختلف أهل العلم من أهل السنة أنفسهم في إثباتها على قولين:

القول الأول: أن النفس هي الذات الإلهية بصفاتها، وليست صفة لها، فقوله ﷻ:﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾؛ أي: لذاتي، وهذا ليس من باب التأويل؛ لكن اللغة العربية تطلق النفس، وتريد به الذات؛ فتقول: سقط الجدار نفسه، ومعلوم أن الجدار ليس له نفس والمقصود: ذاته. وهذا ما قال به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وذهب إلى إنه قول جمهور أهل العلم[٤٠].

والقول الثاني: أن النفس صفة للذات كالسمع والبصر وغيرها من الصفات. وهذا القول قال به جمع من أهل السنة، من أبرزهم الإمام ابن خزيمة رحمه الله في كتابه: التوحيد[٤١]. وأيضًا هذا ما يعتقده الإمام أبو حنيفة ويؤمن به؛ دل على ذلك قوله:"وله: يد، ووجه، ونفس، كما ذكر الله في القرآن، فما ذكره الله في القرآن من ذكر: الوجه، واليد، والنفس، فهو له صفات بلا كيف"[٤٢].

فهذان قولان في المسألة، وبقاء النص على ظاهره، بدون الدخول في تفسير أحد الاحتمالين أولى، فقد يكون المراد بالنفس: الذات، وقد يراد بها: أنها صفة لله ﷻ كبقية الصفات، وقد يكون المراد الاثنين جميعًا.

٥) صفة المحبة:

صفة المحبة من صفات الله ﷻ الثابتة بالكتاب والسنة، ويثبتها أهل السنة والجماعة على الوجه اللائق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ﷻ. من ذلك قوله ﷻ لموسى عليه السلام:﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ (سورة طه: ٣٩). وقوله ﷻ:﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٩٥، وسورة التوبة: ١٣). وقوله ﷻ:﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة التوبة: ٤، ٧). وقوله ﷻ:﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ

اللَّهُ﴾ (سورة آل عمران: ٣١).

ويقول رب العزة في الحديث القدسي: " ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها "[٤٣]. وحديث سهل بن سعد المعروف، أنَّ النبي ﷺ لمَّا ذَكَرَ في فتح خيبر، قال ﷺ:"لأعطين الراية غدًا رجلاً يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه"[٤٤]. فكان علي بن أبي طالب ﷺ.

فمحبة الرب ﷻ لعباده المؤمنين ثابتة بالكتاب والسنة، وقد اختلف فيها أهْل السُّنّةِ وَالْجَمَاعَةِ مع الجهمية والمعتزلة والأشاعرة.

فأما الجهمية، فإنهم قالوا: إن الله ﷻ لا يُحِب ولا يُحَبّ، فالله ﷻ عندهم لا يصح أن نصفه بأنه: يحب أحداً من عباده، وأنه ﷻ لا يُحَبُّ؛ لأن الله يتنزه عن ذلك، بِدعوى أنَّها تُوهِمُ نقصًا؛ إذ المحبَّة في المخلوق معناها ميلُهُ إلى ما يناسِبُه أو يستلذُّهُ[٤٥].

وأما المعتزلة، فلأنهم لا يُثْبِتون إرادة قائمة بالله أصلاً؛ فالمحبة عندهم تعني: الثواب نفسه الواجب عندهم على اللَّه لهؤلاء؛ بناءً على مذهبهم في وجوب إثابة المطيع وعقاب العاصي[٤٦].

وأما الأشاعرة، فيُرْجِعون معنى المحبة إلى الإرادة؛ فيقولون: إن محبة اللَّه لعبده: إرادة ثوابه، وإكرامه، وإثباته بالخير[٤٧].

وهذا كله إنما يرجع لأصولهم الفاسدة التي بنوا عليها عقائدهم في باب الأسماء والصفات، فاعتقدوا أن إثبات هذه الصفات يستلزم التشبيه والمماثلة، فوقعوا في التناقض، فيلزمهم من هذا النفي نفي الإرادة والصفات المماثلة لها؛ مثل: القدرة، والعلم، والسمع، والبصر مثلاً؛ لأن ما ثبت لأحد المثلين ثبت للآخر سلبًا وإيجابًا. فقولهم هذا ليس عليه أي دليل؛ لا من كتاب، ولا من سنة، ولا عقل، فلا يعقله رضيع ولا وضيع.

فمحبته ﷻ لمن شاء من عباده موافقة لأمره ونهيه؛ فإن الله ﷻ يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ويحب المقسطين، ويحب المتقين، ويحب المحسنين،

ويحب المؤمنين، وهؤلاء هم الذين امتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، أما المشركون والمنافقون والعصاة، فليس لهم من محبة الله ﷻ نصيب.

أما أهل السنة والجماعة، فيثبتون المحبة صفة حقيقية للّه ﷻ على ما يليق به، كما يثبتون لازم تلك المحبة؛ وهي: إرادته ﷻ إكرام مَنْ يُحِبُّهُ وإثابته، فهو يُحِب ويُحَب.

٦) صفة العين:

صفة العين من صفات الله ﷻ الذاتية الخبرية التي ثبتت بصريح القرآن، وصحيح السنة النبوية، مما لا يدع مجالاً للشك في ثبوتها، فمن ذلك: قوله ﷻ لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (سورة طه: ٣٩). وقوله ﷻ لنبينا محمد ﷺ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (سورة الطور: ٤٨). وقوله ﷻ:﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (سورة القمر: ١٤).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عُمَرَ ﷺ، قَالَ: ذُكِرَ الدَّجَّالُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ:"إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْكُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ، وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ"[٤٨].

مذهب أهل السنة والجماعة إثبات صفة العين لله ﷻ التي لا تنفك عنه ﷻ؛ مثل: الوجه واليدين، وغيرها من الصفات.

قال أبو القاسم الأصبهاني في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في هذه المسألة:"فصل في إثبات رؤية الله لخلقه: قال الله ﷻ:﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (سورة هود: ٣٧)، وقال:﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (سورة القمر: ١٤)، وقال:﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (سورة طه: ٣٩)، وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (سورة الطور: ٤٨). فواجب على كل مؤمن أن يثبت من صفات الله ﷻ ما أثبته الله لنفسه، وليس بمؤمن من ينفي عن الله ما أثبته الله لنفسه في كتابه، فرؤية الخالق لا يكون كرؤية المخلوق"[٤٩].

أما المعتزلة فإنهم ينفون صفة البصر عن الله ﷻ، وينفون صفة العين، فالله ﷻ عندهم ليس له عين، وليس له بصر ﷻ. فيقولون: هو بصير بلا بصر. تعالى

عما يقولون علوًّا كبيرًا"[٥٠].

والأشاعرة تناقضوا بين أنفسهم وفي أقوالهم؛ فأثبتوا صفة البصر؛ لدلالة لعقل على ذلك، ونفوا صفة العينين لله ﷻ؛ لاعتقادهم المماثلة لو أثبتوها[٥١].

وهم في ذلك مخطئون؛ لأنه ليس معنى إثبات صفة العين لله ﷻ أن يكون هناك مماثلة بينه وبين خلقه؛ إذ لا يوجد أصلاً مماثلة بين المخلوقات التي هي في الوقت نفسه تتصف بصفة العين، فعين الإنسان ليست كعين الفيل، ليست كعين النملة، ليست كعين العصفور! فكيف يكون ذلك ممكنًا في حق الله ﷻ؟! وهو من قال عن نفسه:﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

فصفة العين صفة ذاتية خبرية ثابتة بكتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، فعلينا أن نثبتها بلا كيف، ولا يلزم من إثباتها تشبيه، ولا تجسيم، ولكن علينا إثباتها كما وردت على الوجه المراد من قبل الله ﷻ، كما ذهب أهل السنة والجماعة إلى ذلك.

قال الأزهري رَحِمَهُ اللَّه:" ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾ قال أصحاب النقل والأخذ بالأثر: الأعين: يريد به العين، قال: وعين الله لا تفسر بأكثر من ظاهرها، ولا يسع أحدًا أن يقول: كيف هي، أو ما صفتها؟ ذكره عن ابن الأنباري"[٥٢].

وقال الأشعري رَحِمَهُ اللَّه: " قال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، وقال تعالى: ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾. فأخبر تعالى أن له...عينًا لا تكيف، ولا تحد"[٥٣].

ورد ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّه قول من حاول نفي صفات الله ﷻ تمسكًا بحجة المشابهة بينه وبين خلقه إذا نحن أثبتنا هذه الصفات، فيقول:"وجدت الله وصف نفسه في غير موضع من كتابه، فأعلم عباده المؤمنين أنه سميع بصير، فقال:﴿وهو السميع البصير﴾ (سورة الشورى: ١١)، وذكر ﷻ الإنسان، فقال:﴿فجعلناه سميعًا بصيرًا﴾ (سورة الإنسان: ٢)... وقال ﷻ:﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾، وقال:﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، وقال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

فثبت ربنا ﷻ لنفسه عينًا، وثبت لبني آدم أعينًا؛ فقال:﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾ (سورة المائدة: ٨٣)، فقد خبرنا ربنا أن له عينًا، وأعلمنا أن لبني آدم أعينا... أفيلزم ذوى الحجـا عند هؤلاء الفسـقة[٥٤] أن من ثبت لله في هذا الآي أن

يكون مشبهًا خالقه بخلقه، حاش لله أن يكون هذا تشبيهًا كما ادعوا لجهلهم بالعلم"[٥٥].

المسألة الرابعة

القضاء والقدر في قصة موسى عليه السلام

الإيمان بالقدر أصل من أصول الدين، وركن من أركان الإيمان الستة، التي أخبر النبي ﷺ عنها عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان؟ فأجاب ﷺ بقوله:"أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ"[٥٦].

فلا يستقيم إيمان عبدٍ، ولن يقبل منه حتى يؤمن بالقدر خيرهَ وشره، ولعلنا نلحظ أن رسول الله ﷺ كرر لفظ "تُؤْمِن" عندما أراد أن يتحدث عن القدر، مما يدل على عظم هذا الركن العظيم، وابتدأ بالإيمان بالله، واختتم بالإيمان بالقدر، ليس بالقدر فحسب؛ بل بخيره وشره.

وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة؛ فهم مجمعون على أن كل شيء إنما هو بقدر، إيمانًا منهم بقوله ﷻ:﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (سورة القمر: ٤٩)، وصارت هذه الآية الكريمة مذهبًا لأهل السنة والجماعة، ودستورًا لهم، يتوارثونه خلفًا عن سلف من لدن رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة بلا شك أو ريبة.

وقد اختلفت عبارات أهل السنة والجماعة في تعريفهم للقدر، وإن كانت جلها يدور حول: تقدير الله ﷻ للأمور في القدم، وعلمه بأوقات وقوعها، وصفاتها، واستأثره بهذا العلم، وقدرته الشاملة في أنه: ما من شيء في السموات والأرض يحدث إلا بمشيئته ﷻ، فلا يكون في ملكوته إلا ما يريد، وما من شيء فيه إلا وخلقه ﷻ.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهَ:"جملة القول في القدر: أنه سر الله، لا يدرك بجدال، ولا نظر، ولا تشفى منه خصومة، ولا احتجاج، وحسب المؤمن من القدر أن يعلم أن الله لا يقوم شيء دون إرادته، ولا يكون شيء إلا بمشيئته، له الخلق والأمر كله، لا شريك له؛ نظام ذلك قوله:﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ (سورة الإنسان: ٣٠، وسورة التكوير: ٢٩)، وقوله: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (سورة القمر: ٤٩).

وحسب المؤمن من القدر أن يعلم أن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولا يكلف نفسًا إلا وسعها، وهو الرحمن الرحيم، فمن رد على الله تعالى خبره في الوجهين أو في أحدهما كان عنادًا وكفرًا.

وقد ظاهرت الآثار في التسليم للقدر، والنهي عن الجدل فيه، والاستسلام له، والإقرار بخيره وشره، والعلم بعدل مقدره، وحكمته"[٥٧].

وبمثله قال النووي رَحِمَهُ الله:"اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه: أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم ﷻ أنها ستقع في أوقات معلومة عنده ﷻ، وعلى صفات مخصوصة؛ فهي تقع على حسب ما قدرها ﷻ"[٥٨].

الفرع الأول: مراتب الإيمان بالقدر:

للقدر أربع مراتب تعرف بمراتب الإيمان بالقدر؛ وهي: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، نتعرف عليها بشيء من الإيجاز.

المرتبة الأولى: العلـــم.

أهل السنة والجماعة يؤمنون بأن علم الله محيط بكل شيء، وأن الله ﷻ علم ما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف يكون؛ فعلم كيف سيعمل خلقه قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم، وأعمارهم، وأحوالهم، ومن هو الشقي منهم، ومن هو السعيد منهم، ومن هو من أهل الجنة، ومن هو من أهل النار، وهو العليم الخبير.

ولم يخالف أهل السنة والجماعة في هذه المرتبة سوى غلاة القدرية، والفلاسفة، أما الأولى فقد انقرضت، ولا وجود لها اليوم، ولا يُعرف من يُنسب إليها من المتأخرين.

وأما الثانية، فقالوا إن الله لا يعلم الجزئيـــات إلا بعد وقوعهـــا، وإنما يعلم الكليات. ويجاب على هؤلاء بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (سورة لقمان: ٣٤). فكيف علم الله ﷻ بقيام الساعة، وما تحمل الأنثى في بطنها، وما رزق الإنسان وغيره، والساعة لم تقم بعد، والأنثى لم تضع بعد!.

ولهذه المرتبة أدلة من الكتاب والسنة؛ فمن ذلك: قوله ﷻ:﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آل عمران: ٢٩). وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:"مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ؛ لا يَعْلَمُهَا إِلا اللَّهُ: لا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلا اللَّهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلا اللَّهُ"[٥٩].

هذا، وقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن الله عليم خبير بما كان وبما سيكون قبل أن يكون. قال ابن قتيبة رَحِمَهُ الله:"لم يقل أحد من الناس أن شيئًا يحدث في الأرض لا يعلمه الله"[٦٠]. وقال أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ الله:"وقد أجمع المسلمون قبل حدوث الجهمية والمعتزلة والحرورية على أن لله علمًا لم يزل...وعلم الله سابقٌ في الأشياء... فمن جحد أن لله علمًا فقد خالف المسلمين، وخرج عن اتفاقهم"[٦١].

المرتبة الثانية: الكتابة.

لما علم الله ﷻ ما سيكون أثبت في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة، والإيمان بالكتابة هو جزء من الإيمان بالقدر، ولن يتم تحقيق الإيمان بالقدر من غير الإيمان بهذه المرتبة كغيرها من مراتب الإيمان بالقدر.

ولهذه المرتبة أدلة من نصوص الكتاب والسنة؛ فمن ذلك: قوله ﷻ:﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨). وقوله ﷻ:﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سورة يونس: ٦١).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضْيَ الله عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:"كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ"[٦٢].

وهذا هو ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، ونقله لنا أبو الحسن الأشعري؛ حيث قال رَحِمَهُ الله:"وأجمعوا على أنه تعالى قد قدر جميع أفعال الخلق، وآجالهم،

وأرزاقهم قبل خلقه لهم، وأثبت في اللوح المحفوظ جميع ما هو كائن منهم إلى يوم يبعثون"[٦٣].

المرتبة الثالثة: المشيئة والإرادة.

ذهب البعض إلى أنه لا فرق بين المشيئة والإرادة، وذهب البعض الآخر إلى أن بينهما فرقًا، والثاني أصح.

وقد أجمع أهل السنة والجماعة إجماعًا قطعيًّا على أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن[٦٤]، ولم يخالفهم في ذلك سوى المعتزلة ومن وافقهم، حيث قالوا: إن أفعال العبادة حادثة بمشيئتهم، والله ﷻ لم يردها، فلا تعلق له بها؛ لأنه لا يجوز أن يكون الله مريدًا للمعاصي، وكونه ﷻ عدلاً يقتضي أن تنفى عنه هذه الإرادة[٦٥]. والجبرية قالوا: كل ما يقع قد أراده الله ﷻ[٦٦].

ولعل منشأ هذا الضلال الذي وقع فيه الفريقان هو: عدم تفريقهم بين الإرادة الكونية (المشيئة)، والإرادة الشرعية (المحبة) والتسوية بينهما[٦٧].

فالإرادة الكونية: هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات، ولابد من وقوعها، ولا يلزم محبتها؛ فقد يكون منها ما يسخط الله ﷻ؛ ككفر الكافرين، ومعاصي العاصين، وقد يكون منها ما هو محبوبًا لله ﷻ، راضيًا عنه، كإيمان المؤمنين، وطاعة الطائعين.

ومثال هذه الإرادة الكونية قوله ﷻ:﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٣)، وقوله ﷻ:﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٥).

أما الإرادة الشرعية: فهي المتضمنة للمحبة والرضا، ولا يجب وقوعها، فالفجار والفساق يعصونها.

ومثال هذه الإرادة قوله ﷻ:﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء: ٢٧)، وقوله ﷻ:﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (سورة البقرة: ١٨٥).

ومن هنا، نستطيع أن نقول: إن المعاصي أرادها الله كونًا فقدرها وشاءها، ولكنه لم يردها شرعًا ليرضاها ويحبها[٦٨].

ولهذه المرتبة أدلة من الكتاب والسنة؛ فمن ذلك: قوله ﷻ:﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (سورة البقرة: ١٠٢)، وقوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (سورة آل عمران: ٤٠).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ؛ لِيَعْزِمْ فِي الدُّعَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ صَانِعٌ مَا شَاءَ لا مُكْرِهَ لَهُ "[٦٩].

ونقل لنا أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ اللهَ إجماع أهل السنة والجماعة على وجود مشيئة وإرادة لله ﷻ، فقال:"ومن مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله ﷻ مريد لجميع أعمال العباد؛ خيرها وشرها، ولم يؤمن أحد إلا بمشيئته، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولو شاء أن لا يُعصى ما خلق إبليس، فكفر الكافرين، وإيمان المؤمنين بقضائه ﷻ وقدره، وإرادته ومشيئته، لأراد كل ذلك، وشاءه وقضاه"[٧٠].

فالإرادة والمشيئة لله ﷻ، وللعبد مشيئة، ولكن مشيئة العبد مخلوقة، ولا تخرج عن مشيئة الله ﷻ؛ لقوله ﷻ:﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (سورة التكوير: ٢٩).

فالله ﷻ قدر الخير والشر، فالأول قدره الله ﷻ، وأراده دينًا وشرعًا، وأمر به، وأحبه، وارتضاه، أما الثاني فقدره وأراده كونًا وقدرًا فقط، ولم يرده دينًا وشرعًا، ولم يحبه ، ولم يرضاه، لقوله ﷻ:﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ (سورة الزمر: ٧).

المرتبة الرابعة: الخلــق.

من معتقد أهل السنة والجماعة أن الله ﷻ خالق كل شيء؛ خلق السموات ومن فيهن، وخلق الأرض ومن فيهن، وخلق ما يصدر عن مخلوقاته من أقوال

وأفعال، فأفعال العباد تُسند إلى العباد فعلاً، وتُسند إلى الله خَلْقًا. وقد شذ عن هذا ثلاث طوائف؛ الجبرية، والمعتزلة، والأشاعرة.

أما الجبرية، فقد ذهبت إلى أن العبد مجبر في أفعاله؛ فالله ﷻ هو الفاعل الحقيقي لفعل العبد؛ لأنه هو الخالق للعبد، فيكون خالقًا لفعل العبد[٧١].

أما المعتزلة، فقد ذهبت إلى عكس ذلك؛ فقالت إن العبد يخلق أفعاله نفسه، ونفوا أن يكون الله خالقًا لأفعال العباد[٧٢].

وأما الأشاعرة، فقد أرادوا أن يكونوا وسطًا بين الفرقتين؛ بيد أنهم وقعوا في الجبر، فقالوا بنظرية الكسب، التي تفيد أن للعبد قدرة حادثةً غير مؤثرة في الفعل؛ لامتناع اجتماع قدرتين مؤثرتين في الوقت ذاته؛ قدرة الله ﷻ وقدرة العبد[٧٣].

وقد دلت نصوص الشريعة على أن الله ﷻ خالق المخلوقات جميعها، وأفعالها، وآثارها، فلا خالق سواه، فمن ذلك: قوله ﷻ:﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (سورة: الزمر: ٦٢)، وقوله ﷻ:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (سورة فاطر: ٣).

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ[٧٤] ﷺ، قَالَ: لا أَقُولُ لَكُمْ إِلا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ، كَانَ يَقُولُ:"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاهَا..."[٧٥].

فالعبد هنا يطلب من الله ﷻ أن يهب لنفسه التقوى، ويزكيها، مما يدل على أن الخالق هو الله ﷻ، فهو خالق النفس، وهو القادر على هدايتها.

الفرع الثاني
الاحتجاج بالقدر

رغم ذلك كله، فقد وجدنا من يعتقد أن الإيمان بالقدر يمنح العاصي الحق في فعل المحرمات، والتفلت من أحكام الشريعة، وتعطيل الطاعات، وغير ذلك من ذنوب يفعلها العبد، ويجتهد في تحميل القدر السبب في معاصيه، ومخالفته للشرع.

بيد أن الله ﷻ فضح هؤلاء، وأبطل حججهم، فجعلها هباءً منثورًا، فقال ﷻ:﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٨)..

فبين الله ﷻ أن الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي إنما هو حجة المشركين، وقد حكم ﷻ على مثل هذا الاحتجاج بالكذب، وتحداهم أن يقدموا دليلاً واحدًا، وبرهانًا مبينًا لصحة ما يزعمونه، ولكنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا.

أما الاحتجاج بالقدر على المصائب فهذا لا شيء فيه، كالاحتجاج بالقدر على الفقر، والمرض، والموت، غير ذلك، فهذا من تمام الرضا بالله ﷻ، فالمؤمن الحق هو الذي يصبر على المصائب بإيمانه بقضاء الله وقدره، ويحتج بهما على ما هو فيه، ولا يحتج على معايبه ومعاصيه بهما؛ بل يستغفر الله ﷻ، ويتوب، ويعقد العزم على عدم الرجوع.

ولعل المتحاجين بالقدر على المعاصي يستندون على حديث محاجة آدم موسى عليهما السلام، ويعتقدون خطأ أن فيه نصرة لهم على ما ذهبوا إليه. وحتى نتبين حقيقة المراد من الحديث، علينا بعرضه أولاً، ثم تحليله.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:"احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى؛ فَقَالَ لَهُ: مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ مِنْ الْجَنَّةِ. فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ، ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى مَرَّتَيْنِ"[٧٦].

فهم بعضهم من هذا الحديث أن موسى عليه السلام لام آدم عليه السلام على المعصية، وأن آدم احتج بالقدر على المعصية؛ بيد أنه حاجه لأنه تاب من الذنب، و"التائب من الذنب كمن لا ذنب له"[٧٧]، أو أنه أبوه، وليس للابن أن يلوم أباه، أو غير ذلك من توجيهات وجّهها بعضهم.

ودحض ابن القيم رَحِمَهُ اللهَ هذه التوجيهات بقوله:"اختلف الناس في فهم هذا الحديث، ووجه الحجة التي توجهت لآدم على موسى، فقالت فرقة:...إنما حجّه لأنه

كان قد تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لومه.

وهذا لا يصح لثلاثة أوجه:

أحدها: أن آدم لم يذكر ذلك الوجه، ولا جعله حجة على موسى، وام يقل: أتلومني على ذنب قد تبت منه.

الثاني: أن موسى أعرف بالله ﷻ، وبأمره، ودينه، من أن يلوم على ذنب قد أخبره الله ﷻ أنه قد تاب على فاعله، واجتباه بعده، وهداه، فإن هذا لا يجوز لآحاد المؤمنين أن يفعله فضلاً عن كليم الرحمن.

الثالث: أن هذا يستلزم إلغاء ما علق به النبي ﷺ وجه الحجة واعتبار ما ألغاه، فلا يلتفت إليه"[٧٨].

ثم أجاب ابن القيم رَحِمَهُ اللهَ على بقية التوجهيات بقوله:"قالت فرقة: إنما حجّه لأن آدم أبوه، فحجه كما يحج الرجل ابنه.

وهذا الكلام لا تحصيل فيه البتة؛ فإن حجة الله يجب المصير إليها مع الأب كانت أو مع الابن، أو العبد، أو السيد، ولو حج الرجلُ أباه بحق وجب المصير إلى الحجة.

وقالت فرقة: إنما حجه لأن الذنب كان في شريعة واللوم في شريعة.

وهذا من جنس ما قبله؛ إذ لا تأثير لهذا في الحجة بوجه، وهذه الأمة تلوم الأمم المخالفة لرسلها المتقدمة عليها، وإن كان لم تجمعهم شريعة واحدة، ويقبل الله شهادتهم عليهم، وإن كانوا من غير أهل شريعتهم"[٧٩].

ولكننا، إذا أمعنا النظر في منطوق الحديث نجد أنه يخالف هذا المفهوم الذي ذهبوا إليه؛ خاصة وإذا ضممنا إليه الروايات الأخرى الصحيحة، فنجد أن موسى عليه السلام لام آدم عليه السلام على مصيبة خروجه من الجنة وخروجنا بالتبعية معه، لا على ارتكابه المعصية، وهذا ما سيتضح مع روايات الحديث التي أذكرها إجمالاً:

فقد ورد في روايات الحديث المختلفة أن موسى قال لآدم:"أَنْتَ الَّذِي أَشْقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ"[٨٠]، "أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنْ الْجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشْقَيْتَهُمْ"[٨١]، "أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنْ الْجَنَّةِ"[٨٢]، "أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجْتَ

ذُرِّيَّتَكَ مِنْ الْجَنَّةِ"[٨٣]، "أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَغْوَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ"[٨٤]، "أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ...ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الأَرْضِ"[٨٥]، "أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجَتْكَ خَطِيئَتُكَ مِنْ الْجَنَّةِ"[٨٦].

ولعلنا نلحظ بعد أن جمعنا هذه الروايات أن اللوم لم يكن من أجل معصية آدم لربه؛ وإنما كان من أجل المصيبة التي حلَّت به وبنا؛ ألا وهي: الخروج من الجنة إلى وجه البسيطة، فأي لوم، وأي حجاج يكون على قدر هذه المصيبة؟!.

فالمصيبة ليست فعل آدم، وإنما كتبت عليه؛ فلهذا قال:"أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ"، أما العاصي والفاسق والكافر، وغيرهم، فلا يجوز لهم أن يحتجوا بالقدر على فعلهم، بل يجب عليهم أن يستغفروا الله، ويتوبوا إليه من فعلهم.

فلو أن موسى عليه السلام كان يقصد لوم آدم عليه السلام على الذنب لأجابه آدم: أنني تبت منه، وتاب الله عز وجل عليَّ، وقبل توبتي، كما قبل توبتك يا موسى من قتلك لنفسٍ، وإلقائك الألواح. وهذا ما لم يحدث، وإنما كان اللوم على المصيبة، فكان محاجة آدم له بالقدر، ومثل هذا مقبول في باب المصائب، وغير مقبول في باب المعائب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:"حج آدم موسى؛ لأن موسى قال له: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟! فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذنبًا؛ ولهذا احتج عليه آدم بالقدر، وأما كونه لأجل الذنب كما يظنه طوائف من الناس فليس مرادًا بالحديث؛ لأن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس. وأيضًا فإن آدم احتج بالقدر، وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين، وسائر أهل الملل، وسائر العقلاء"[٨٧].

حديث موسى مع ملك الموت:

احتج بعض القائلين بجواز الاعتراض على قضاء الله وقدره بحديث فقء موسى عليه السلام لعين ملك الموت، واتخذوا هذا الحديث قبلة لهم يحتجون به على قوله هذا. فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّه قَالَ:"جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عليه السلام، فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ. قَالَ: فَلَطَمَ مُوسَى عليه السلام عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا. قَالَ:

فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ: إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لاَ يُرِيدُ الْمَوْتَ، وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي. قَالَ: فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى عَبْدِي، فَقُلِ: الْحَيَاةَ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَةٍ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً. قَالَ: ثُمَّ مَهْ، قَالَ: ثُمَّ تَمُوتُ. قَالَ: فَالآنَ مِنْ قَرِيبٍ رَبِّ أَمِتْنِي مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي عِنْدَهُ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ"[٨٨].

وقد ثبت بالكتاب والسنة أن الملائكة قد يتمثلون في صور الرجال، وقد يراهم كذلك بعض الأنبياء، فيظنهم من بني آدم، كما في قصتهم مع إبراهيم ومع لوط عليهما السلام.

قال ربنا ﷻ:﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ (سورة هود: ٦٩- ٧٠). وقال ﷻ في مريم:﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (سورة مريم: ١٩).

وفي السنة أشياء من ذلك وأشهرها ما جاء في حديث جبريل من السؤال عن: الإيمان، والإسلام، والإحسان.

فلا مانع من أن يتمثل ملك الموت في صورة بشر، ويأتي إلى موسى عليه السلام، فلا يعرفه موسى عليه السلام؛ لأن الله ﷻ لم يخبر موسى عليه السلام بهذا الإتيان، وهذا الجسد المادي الذي تمثل به الملك ليس جسده الحقيقي، وليس من لازم تمثله فيه أن يخرج الملك عن ملكيته، ولا أن يخرج ذاك الجسم المادي عن ماديته.

فعلى هذا، فإن أي ضرب، أو طعن، أو قطع لذاك الجسم لم يلزم أن يتألم بها الملك، ولا أن تؤثر في جسمه الملائكي الحقيقي، وإنما هو ضرب وطعن لهذا الجسد البشري.

فموسى عليه السلام لما رأى رجلاً لا يعرفه يدخل علية فجأة، وقال ما قال، حمله ذلك كله- إضافة لحب الحياة- على الاستعجال بدفعه، ووقوع الضربة وتأثيرها كان على ذاك الجسد العارض، وليس على هذا الجسد الملائكي.

وقد ذكر ابن حجر توجيهًا آخر للحديث، فقال:"الجواب: أن الله لم يبعث ملك الموت لموسى وهو يريد قبض روحه حينئذ، وإنما بعثه إليه اختبارًا، وإنما لطم موسى ملك الموت لأنه رأى آدميًّا دخل داره بغير إذنه، ولم يعلم أنه ملك الموت، وقد أباح الشارع فقء عين الناظر في دار المسلم بغير إذن، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط في صورة آدميين، فلم يعرفاهم ابتداء، ولو عرفهم إبراهيم لما قدم لهم المأكول، ولو عرفهم لوط لما خاف عليهم من قومه"[٨٩].

مما سبق نستطيع أن نجيب على هذه الشبهة من وجهين:

الوجه الأول: أن موسى عليه السلام لم يعرف ملك الموت عندما أتاه في المرة الأول، والدليل على ذلك: أنه لما عرفه في المرة الثانية رضي بقضاء الله وقدره، فاختار موسى عليه السلام لقاء ربه ﷻ.

الوجه الثاني: أن ملك الموت في الموت الأولى لم يؤمر بقبض روح موسى عليه السلام، لأنه لو كان قد أُمر بذلك لفعل، وإنما كان الإتيان من أجل الاختبار لا الإماتة.

فهذا الحديث لا يفهم منه أن موسى عليه السلام كره قضاء الله ﷻ، أو أنه أراد تعطيل القدر والعياذ بالله.

الفرع الثالث
إثبات الأسباب

الإيمان بقضاء الله ﷻ وقدره، واعتقاد أن الأمور تسير وفق مقدرات قدرها الله ﷻ لا يقتضي من العبد ترك الأخذ بالأسباب، اتكالاً على ذلك؛ بل إن التوكل الحقيقي لا ينافي مباشرة الأسباب؛ بل إن الأسباب نفسها مما قضى الله ﷻ وقدره، فاقتضت حكمته ﷻ أن ترتبط الأمور بمسبباتها، وتتعلق بها، كما يرتبط الجزاء بالشرط، والمعلول بالعلة، وكل ذلك بقضاء الله وقدره، لا تنافي بينهما.

وترك مباشرة الأسباب قدح في الشرع، كما أن الالتفات إلى الأسباب فقط شرك في التوحيد، فمجرد حصول الأسباب لا يوجب حصول المسبب؛ فنزول المطر من السماء ليس شرطًا لإنبات النبات، ولكن ذلك لا يكون إلا بقضاء الله وقدرة.

ومن هنا، فإن من ترك الأخذ بالأسباب بحجة أنه متوكل على الله ﷻ، مؤمن بقضائه وقدره، وأنه لا يقع في ملكه شيء إلا بمشيئته، فإن مثل هذا بعيد كل البعد عن حقيقة الإيمان بقضاء الله وقدره.

فالخلط بين ما أُرِيد بنا وما أُرِيد منا هو الذي يُحدث اللبس، فكون الله ﷻ قادرًا على كل شيء، لا يعني ذلك أن يتكل العبد على هذا؛ فقدرة الله ﷻ صفة خاصة به، من شأنها أن تزيد العبد طمأنينة، لا اتكالاً واتكاءً، أما العبد فله قدرته الخاصة به، عليه أن يعمل بها، ولا يعطلها، فالله ﷻ قادر على رزقه ونصرته، ولكن على العبد أن يباشر أسباب الرزق والنصر.

وأحسب أنه ليس أدل على وجوب الأخذ بالأسباب من قوله ﷻ لمريم عليها السلام:﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ (سورة مريم: ٢٥)، فهذه مريم عليها السلام وهي في أضعف حالة من الممكن أن تكون المرأة فيها، وهي في المخاض، فضلاً عن كون المرأة ضعيفة بطبيعة الحال، يأمرها الله ﷻ أن تهز أثبت وأقوى شيء في النخلة، ألا وهو جذعها، فعندما يتلاقى الضدان؛ أضعف شيء أمام أقوى شيء، ماذا يتوقع العبد؟! بالطبع لا يوجد تكافؤ؛ ولكن إذا أضفنا قدرة الله ﷻ لأضعف شيء، ماذا تتوقع؟! بالطبع لا شيء يقف أمام قدرة الله ﷻ، ولا يعجز عليه.

وهنا أسأل: ألم يكن الله قادرًا على أن يُسقط لها الرطب دون أن تحاول هز جذع النخلة؟! بلى قادر. ألم نر كثيرًا من الرطب وهي تسقط على الأرض دون أدنى تدخل من أي إنسان؟! إذًا فقد أراد الله ﷻ من وراء ذلك حكمة عظيمة؛ ألا وهي: أن يعلم مريم عليها السلام ونحن من ورائها أمرًا في غاية الأهمية ألا وهو: وجوب الأخذ بالأسباب، مع وجوب الثقة في قدرة الله ﷻ.

أم موسى عليها السلام تأخذ بالأسباب:

وأجد قصة أم موسى عليها السلام مع وليدها موسى ﷺ أقرب ما يكون من قصة مريم عليها السلام من حيث صدق التوكل على الله ﷻ، والأخذ بالأسباب، مع كونها في أشد ما تكون الأم من الحزن والألم؛ وهي ترى طفلها الرضيع يضيع

من بين يديها؛ بل هي التي ترميه بيدها فيما يعتقد منه الهلاك؛ ألا وهو البحر؛ فالبحر كما هو معروف في قانون البشر أنه مظنة الهلاك والغرق؛ خاصة لمثل هذا الطفل الرضيع المسجون بين جدران التابوت.

يقول ربنا ﷻ:﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى. أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (سورة طه: ٣٨- ٣٩).

انظر عندما يريد الله ﷻ أمرًا؛ فإنه ﷻ يُسَخِّر كل ما في الكون لإرادته؛ ليس هذا فحسب؛ بل إنه يغير من طبيعة المخلوقات، ويحولها من حال إلى حال مختلفة تمامًا، ولما كان إلقاءُ البحرِ لموسى عليه السلام بالساحل أمرًا واجبَ الوقوع لتعلق الإرادةِ الربانية به، جُعل البحرُ كأنه ذو تمييزٍ مطيعٍ، فأُمر بذلك، وأُخرج الجوابُ مُخرجَ الأمر.

والأمر لم ينته عند هذا الحد؛ بل تحولت عداوة فرعون لله ﷻ ولموسى من بعده إلى الحصن الحصين لموسى عليه السلام، مما يدلك على أن هناك لُطفًا من الله ﷻ خفيًّا ورحمة واسعة تحيط بموسى عليه السلام.

موسى عليه السلام يأخذ بالأسباب:

لم يتكل موسى عليه السلام على أنه نبي مرسل من قبل الله ﷻ، وأن الله ﷻ يؤيده، وينصره؛ بل اتخذ الأسباب سلمًا شرعيًّا، مستعينًا في ذلك بالله ﷻ. ونستطيع أن نجمل بعضًا من المواضع التي تبرز اهتمام موسى عليه السلام بالأسباب في النقاط التالية:

١) استعانته بالله ﷻ في تأديته للرسالة المكلف بها؛ وهي دعوة فرعون وقومه للإيمان بالله ﷻ؛ حيث قال:﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (سورة طه: ٢٥- ٢٨).

٢) اتخاذ الوزير المناسب؛ للتشاور معه، ومشاركته الأمر؛ لتقويته على مواجهة فرعون وقومه، حيث قال: ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي. كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا. وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ (سورة طه: ٢٩-

٣٤).

٣) طلبه للعلم، وقصته المشهورة مع الخضر، ولم يستعل في الأرض، وقال إنه نبي مرسل فكيف له أن يأخذ العلم على يد غيره. وغير ذلك من مواضع ظهرت فيها كيف أن موسى عليه السلام يأخذ بالأسباب؛ كخروجه بقومه وعبوره البحر بهم، وخروجه من قبل ذلك إلى مدين طلبًا للنجاة، وتأجير نفسه طلبًا للرزق، ولم يتكل على رب الأسباب فقط.

ومنهج أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون بالأسباب وتأثيرها، ولكن تأثيرها هذا إنما يكون بتأثير قدرة الله ﷻ.

وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهَ على ذلك، فقال:" فالسلف والأئمة متفقون على إثبات الأسباب والحِكَم خلقًا وأمرًا "[٩٠].

وقال الحافظ الحكمي رَحِمَهُ اللهَ:" ليس في فعل الأسباب ما ينافي التوكل مع اعتماد القلب على خالق السبب، وليس التوكل بترك الأسباب؛ بل التوكل من الأسباب، وهو أعظمها، وأنفعها، وأنجحها، وأرجحها، كما أن من اضطربت نفسه، ووجل قلبه، فرقًا، وخوفًا، وارتيابًا، وعدم يقين بالقدر، لا يكون متوكلاً على الله بمداناته المرضى والمبتلين، وتركه فعل الأسباب، فكما لا يكون المرتاب متوكلاً بمجرد تركه الأسباب، كذلك لا يكون الموحد تاركًا التوكل، أو ناقصه بمجرد فعل الأسباب النافعة، وتوقي المضرة، وحرصه على ما ينفعه، فإنما الشأن فيما وقر في القلوب، وسكنت إليه النفوس"[٩١].

الفرع الرابع
الحكمة والتعليل لأفعال الله ﷻ

الحكيم اسم من أسماء الله ﷻ، والحكمة من صفاته ﷻ؛ فالله ﷻ حكيم في خلقه، حكيم في أمره، حكيم في فعله، فلا يفعل شيئًا، ولا يأمر أمرًا إلا لحكمة بالغة وعلة حميدة.

وإثبات هذه الحكمة هو منهج أهل السنة والجماعة، لا يحيد عنها إلا كل هالك، ولا ينكرها إلا كل زائغ، ولا يثبتها إلا كل متبع منيب.

ومسألة الحكمة والتعليل ثابتة بالنصوص، لا ريب فيها؛ فمن ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (سورة: القمر: ٤- ٥)، وقوله:﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٦، وسورة الدخان: ٣٨).

فالله ﷻ كل فعله بحكمة، وهذه الحكمة قد يمن الله ﷻ بها على عباده فيخبرهم إياها، وقد يخفي حكمة فعله عن عباده لحكمة يعلمها، ولكن كل ما علينا أن نؤمن أن الله ﷻ ما خلق كل ذرة في هذا الكون إلاَّ لحكمة، وإلا فإن لم تكن هناك حكمة فهذا يعني أن هذه المخلوقات خُلقت عبثًا ولعبًا حاشا لله. فقد قال ﷻ:﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ١١٥).

وكما قلنا، فإن أهل السنة والجماعة أثبتوا هذه المسألة، أما الجهمية ومن وافقوهم من الأشاعرة فإنهم أنكروها، وقالوا: إن الله قدر المقادير، وشرع الشرائع لغير علة أو حكمة؛ بل فعل ذلك لمحض المشيئة وصرف الإرادة.

إذًا، فحكمة الله ﷻ منتفية عند كثير من الأشاعرة، ويطلقون عليها الغرض، كما زعموا من قبل أن الله ﷻ منزه عن الأعراض وهي الصفات، وكذا الأبعاض وهي صفة الوجه واليد والقدم، ونحو ذلك.

فأهل السنة والجماعة بينوا أن الله ﷻ يفعل لحكمة، وعلة، وغاية، وليس شرطًا إن يدرك كل فرد من العباد كمال حكمته في جميع قضائه.

وقصة موسى عليه السلام ورد فيها ذكر بعض الشواهد في تعليل أفعال الله ﷻ، ومن أمثلة ذلك: قول الله ﷻ:﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (سورة يونس: ٩٢). وقول ربنا ﷻ:﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (سورة الكهف: ٨٢). وقوله ﷻ:﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ (سورة طه: ١٥). وقوله ﷻ:﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (سورة القصص: ٨).

وهذه الآية الأخيرة وقع فيها خلاف؛ هل اللام هي لام العاقبة أم لام التعليل؟ والراجح أنها لام التعليل.

قال ابن كثير:"قال محمد بن إسحاق وغيره: "اللام" هنا لام العاقبة لا لام التعليل؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك. ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه، ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل؛ لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه؛ ولهذا قال:﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾"[٩٢].

وقال الشنقيطي:" قوله تعالى:﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. اعلم أن التحقيق إن شاء الله ، أن اللام في قوله:﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، لام التعليل المعروفة بلام كي، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز، ويدل على ذلك قوله تعالى:﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (سورة: الإنسان: ٣٠، وسورة التكوير: ٢٩).

وإيضاح ذلك أن قوله تعالى:﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، صريح في أن الله تعالى يصرف مشيئة العبد وقدرته بمشيئته جل وعلا، إلى ما سبق به علمه، وقد صرف مشيئة فرعون وقومه بمشيئته جل وعلا، إلى التقاطهم موسى؛ ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا، فكأنه يقول: قدرنا عليهم التقاطه بمشيئتنا ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، وهذا معنى واضح، لا لبس فيه ولا إشكال ، كما ترى ...

وهذا المعنى هو التحقيق في الآية إن شاء الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى:﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. كما بينا وجهه آنفًا.

وبهذا التحقيق تعلم أن ما يقوله كثير من المفسرين، وينشدون له الشواهد من أن اللام في قوله:﴿لِيَكُونَ﴾ لام العاقبة والصيرورة خلاف الصواب"[٩٣].

المسألة الخامسة

معجزات موسى عليه السلام

لقد منَّ الله ﷻ على رسله بالآيات البينات التي تؤيدهم، وتدل على صدق رسالاتهم، ونبوتهم، وهذه البينات ما هي إلا المعجزات الساطعة، والآيات الدالة على صدق دعوة النبيين، والشرائع المحكمة.

يقول ربنا ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ

فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الروم: ٤٧).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:"مَا مِنْ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلا أُعْطِيَ مِنْ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أُومِنَ- أَوْ آمَنَ- عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنِّي أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[٩٤].

فهذه نصوص من كتاب الله ﷻ وسنة نبينا ﷺ تدل على أنه ما من نبي إلا وله آيات وبينات، كان من الطبيعي أن تقتضي إيمان من عاينها، ولكنه عناد المعاندين، وكفر الكافرين.

ولا يشترط اتحاد هذه الآيات من حيث النوع، وإنما تختلف من نبي لآخر تبعًا لقوم كل نبي، وما يناسبهم من علامات معجزة حتى يتحقق لهم اليقين، فيؤمنوا بالله الواحد القهار.

الفرع الأول
المعجـــــزة

المعجزة: اسم فاعل من العَجْزُ نقيض الحَزْم، ومُعجِزَة النبيِّ ﷺ: ما أَعْجَزَ به الخصمَ عند التَّحدِّي، والهاءُ للمبالغة، والجمْع مُعجِزاتٌ، وهي أمر خارق للعادة يجريه الله ﷻ على يد من يختاره لنبوته ليدل على صدقه وصحة رسالته[٩٥].

ومعجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام كثيرة؛ منها: ناقة صالح عليه السلام، وعصا موسى عليه السلام، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى معجزة عيسى عليه السلام، ومعجزات نبينا محمد ﷺ وهي كثيرة، أعظمها: القرآن الكريم، وهو المعجزة الخالدة التي تحدى الله بها الجن والإنس، ومنها أيضًا: الإسراء والمعراج، وانشقاق القمر، وتسبيح الحصا في كفه، وحنين الجذع إليه، وإخباره عن حوادث المستقبل والماضي، ودلائل النبوة ليست محصورة في المعجزة كما يقوله المتكلمون؛ بل هي كثيرة متنوعة، كما أن معجزات الأنبياء تتفاوت فيما بينها.

فكل رسول أيد بمعجزة تدل على صحة رسالته، فيظهر صدقه، وتثبت حجته، كما قد علم من أحوالهم بما أخبرنا الله به ونبيه عنهم، غير أن معجزاتهم تنقرض بانقراضهم، فلا يبقى منها بعدهم إلا الإخبار بها، إلا المعجزة الكبرى لنبينا

محمد ﷺ؛ ألا وهي القرآن الكريم.

وفي ذلك يقول القاضي عياض:"إن سائر معجزات الأنبياء انقرضت بانقراضهم، ولم يشاهدها إلا ما كان حاضرًا لها، ومعجزة نبينا ﷺ من القرآن، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته بيِّنةً لكل من يأتي إلى يوم القيامة إلى ما انطوى عليه من الإخبار عن الغيوب، فلا يمر عصر إلا ويظهر فيه معجزة مما أخبر أنها تكون، تدل على صدقه، وصحة نبوته، وتجدد الإيمان في قلوب أمته"[٩٦].

فالمعجزات لا تكون إلا للأنبياء، أما غير الأنبياء من الأولياء الصالحين فتظهر لهم كرامات لا معجزات، وأما غير هؤلاء جميعًا فلا يظهر لهم شيء.

ونبي الله موسى عليه السلام قد أرسله ﷻ إلى قومه بتسع آيات صريحات، ذكرها لنا الله ﷻ في كتابه الكريم، فقال ﷻ:﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا. قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (سورة الإسراء: ١٠١- ١٠٢).

وفصلت هذه المعجزات في قوله ﷻ:﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٣٠- ١٣٣).

فهذه خمس يضاف إليها اليد والعصا في قوله ﷻ:﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ. اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (سورة القصص: ٣١- ٣٢).

وكذلك يضاف إلى هذه السبع آيتي السنين ونقص الثمرات؛ ليتم بذلك التسع

آيات؛ وذلك في قول ربنا ﷻ:﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٣٠).

قال أكثر المفسرين: الآيات التسع هي: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، والسنين، ونقص الثمرات. وإن اختلفوا في آخر معجزتين: السنين، ونقص الثمرات[٩٧].

وأشهر هذه المعجزات العصا؛ لكونها كانت ملازمة لموسى عليه السلام في أكثر من موضع؛ ولأنه استخدمها كثيرًا، فمن هذه الاستخدامات:

قوله ﷻ:﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى. قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى. قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (سورة طه: ١٧- ٢١). وقول الملك ﷻ:﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١١٧). وقوله ﷻ:﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (سورة البقرة: ٦٠). وقوله ﷻ:﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (سورة الشعراء: ٦٣).

فهذه الآيات الكريمة تبين لنا الدور الذي لعبته العصا في حياة موسى عليه السلام؛ سواء قبل البعثة أو بعدها؛ فقبل أن يوحي إليه ربه ﷻ بالرسالة كان يستخدمها في أمور دنياه؛ كأن يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، وغير ذلك من أمور لعبت فيها العصا الدر الرئيس فيها. وبعد الوحي استخدمها موسى عليه السلام بقدرة الله ﷻ مع فرعون وسحرته والتأثير فيهم، وفي النجاة من فرعون، وفي سقي قومه. مما يدلنا على الدور الكبير الذي لعبته العصا في رسالة موسى عليه السلام.

الفرع الثاني
الكرامـــــة

أما هذا الذي يظهر على يد بعض أهل الصلاح فإنه يسمى: الكرامة، وما ظهرت على يد الأولياء إلا بعد أن آمنوا بالله ﷻ وبنبيه ﷺ، وشهدوا له بالصدق والبلاغ، فحدثت لهم هذه الكرامات ببركة اتباعهم لأنبيائهم، وهي ضرب من ضروب خرق العادة، ولكنها أقل من المعجزات.

فالأنبياء حدث لهم قلب العصا لحية، وجعل النار بردًا وسلامًا، وإبراء الأكمه والأبرص، وانفلاق البحر، وانشقاق القمر، والقرآن، أما الأولياء فيحدث لهم ما دون ذلك، مثل: تكثير الطعام والماء، وقبول الدعاء، والفراسة، والمكاشفة بما يغيب عن العين، وغير ذلك بما لا يصل لدرجة معجزات الأنبياء.

وأهل السنة والجماعة يقولون بكرامات الأولياء، وبحدوثها، وباختصاصها بأولياء الله الصالحين، لا ينازعهم في ذلك منازع.

قال ابن العربي رَحِمَهُ الله:"لا خلاف بين أهل السنة في كرامات الأولياء، وإنما اختلفوا في كيفيتها؛ فمنهم من قال: إنها إجابة دعوة...ومنهم من قال: إنها تكون بخرق العوائد، والإخبار عن الغيوب، وهو الصحيح...ومن الكرامة في نحو إجابة الدعوة إبرار القسم؛ إذ قال القائل: والله لا يكون كذا، فلم يكن"[٩٨].

فإن قال قائل: وكيف بالمسيخ الدجال وله معجزات ظاهرة ؟!.

قلت: الدجال غير مدعي النبوة، وإنما هو مدعي الربوبية، واستحالة هذا الادعاء ظاهر لكل مؤمن؛ لأنه في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله؛ من انتقاصه بالعور، وعجزه عن إزالته عن نفسه، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه، فاستحالته ظاهرة.

ويعلم قطعًا أن فائدة تمكينه من هذه الخوارق، وإظهارها على يدي الدجال لم يقصد بها تصديقه كما هو الحال مع الأنبياء؛ وإنما قصد بها أمر آخر؛ وهو أنها فتن ومحن، امتحن الله بها عباده؛ ليمحص الله الذين آمنوا، ويمحق الكافرين.

المسألة السادسة

موسى والخضر[٩٩]

لم يذكر اسم الخضر صراحة في كتاب الله ﷻ؛ ولكن ذكرت قصته مع نبي الله موسى ﷺ، وبالرجوع إلى كتب السنة وجدنا أن اسمه الخضر، ولا ندري أهذا اسمه أم لقبه؟ وهذا ليس له كبير فائدة، ولكن المهم: أهو نبي أم لا؟

قد اضطرب أهل العلم في الخضر؛ أهو نبي أم لا؟ وإن كان الراجح في المسألة أنه نبي، ولكنه لم يُرسل إلى أمة من الأمم، لاستحالة أن تكون كل هذه الأفعال تصدر من غير نبي يوحى إليه، وإلا كانت هذه ذريعة لمن يعتقد أن الولي أفضل من النبي.

قال ابن بطال رَحِمَهُ الله:"قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ (سورة الكهف: ٨٢) يدل أنه فعله بوحي من الله بذلك إليه، ويشهد لهذا وجوه من نفس القصة؛ منها: أنه لا يجوز لأحد أن يقتل نفسًا لما يتوقع وقوعه منها بعد حين، مما يوجب عليها القتل؛ لأن الحدود لا تجب إلا بعد وقوعها. وأيضًا فإنه لا يقطع على فعل أحد قبل بلوغه، ولا يعلمه إلا الله؛ لأن ذلك إخبار عن الغيب. وكذلك الإخبار عن أخذ الملك السفينة غصبًا، والإخبار أيضًا عن بنيانه الجدار من أجل الكنز الذي تحته، ليكون سببًا إلى استخراج الغلامين له، إذا احتاجًا إليه، مراعاة لصلاح أبيهما، وهذا كله لا يدرك إلا بوحي من الله تعالى. وفي هذا الحديث[١٠٠]: أن الخضر أقام الجدار بيده، وفى كتاب الأنبياء قال سفيان: فأومأ بيده، وهذه آية عظيمة لا يقدر الناس على مثلها، وهى تشبه آية الأنبياء. وهذا كله حجة لمن قال بنبوة الخضر...قال المهلب: وهو حجة لمن قال بنبوة الخضر"[١٠١].

تعمير الخضر:

اختلفت الأقوال في هذه المسألة ما بين نافٍ لبقاء الخضر حيًّا حتى الآن وبين بقائه.

فمن نفى بقاء الخضر حيًّا حتى الآن استدل بحديث عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما الَّذي جَاءَ فِيهِ أَنَّهُ قَالَ: " صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ ﷺ الْعِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا

سَلَّمَ قَامَ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ "[١٠٢]. قال أبو حيان رَحِمَهُ الله: " والجمهور على أنه مات، وقال شرف الدين أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي: أما خضر موسى بن عمران فليس بحي؛ لأنه لو كان حيًّا للزمه المجيء إلى النبيّ ﷺ والإيمان به واتبّاعه"[١٠٣]. وقال القرطبي رَحِمَهُ الله: " ذهب الجمهور من الناس إلى أن الخضر مات [١٠٤]"ﷺ.

هذا، وقد حاول النووي رَحِمَهُ الله أن ينسب دعوى بقاء الخضر حيًّا حتى الآن لجمهور أهل العلم، فقال النووي:"جمهور العلماء على أنه حي موجود بين أظهرنا؛ وذلك متفق عليه عند الصوفية، وأهل الصلاح والمعرفة، وحكاياتهم في رؤيته، والاجتماع به، والأخذ عنه، وسؤاله، وجوابه. ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن يحصر، وأشهر من أن يستر. وقال الشيخ أبو عمر بن الصلاح: هو حي عند جماهير العلماء، والصالحين، والعامة معهم في ذلك، قال: وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثين"[١٠٥].

من الواضح أن النووي لم يستند لأي دليل على صحة كلامه؛ فلو كان حيًّا لدل القرآن، أو السنة، أو الإجماع، على ذلك، فهذا كتاب ربنا أين الدليل فيه على حياة الخضر ؟!، وتلك سنة نبينا ﷺ أين القول فيها بما يدل على حياته؟!، وهؤلاء علماء الأمة متى أجمعوا على حياته ؟؛ بل إن دعوى القول بحياته من قبل الجمهور قد نفاها العديد من أهل العلم.

فقد رد أبو الطيب العظيم آبادي[١٠٦] رَحِمَهُ الله قول الإمام النووي رَحِمَهُ الله بقوله:"ما قاله النووي من أن حياة الخضر قول الجمهور ليس بصحيح، وقد رد عليه الحافظ ابن حجر في الإصابة فقال: اعتنى بعض المتأخرين بجمع الحكايات المأثورة عن الصالحين وغيرهم ممن بعد المائة الثالثة فما بلغت العشرين، مع ما في أسانيد بعضها ممن يضعف لكثرة أغلاطه، أو إيهامه بالكذب؛ كأبي عبد الرحمن السلمي، وأبي الحسن بن جهضم"[١٠٧].

إذًا، فدعوى القول بتعمير الخضر، وأن هذا من قول الجمهور ليست

صحيحة؛ بل الجمهور على خلاف ذلك، فالجمهور إذا استند لأدلة على كلامه راعى أن تكون هذه الأدلة صحيحة سندًا ومتنًا، وصريحة في الدلالة.

وقد اجتهد أهل العلم في تتبع الروايات القائلة بتعمير الخضر؛ لبيان مدى صحتها أو ضعفها، فظهر أنها ضعيفة موضوعة، وكان ممن ضعف الروايات التي استدل بها القائلون بحياة الخضر أبو الحسين بن المنادى[١٠٨] رَحِمَهُ الله؛ حيث قال:"بحثت عن تعمير الخضر؛ وهل هو باق أم لا ؟، فإذا أكثر المغفلين مغترون بأنه باق من أجل ما روي في ذلك... والأحاديث المرفوعة في ذلك واهية، والسند إلى أهل الكتاب ساقط؛ لعدم ثقتهم، وما عدا ذلك من الأخبار كلها واهية لا يخلو حالها من أحد الأمرين: إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالاً، أو أن يكون بعضهم تعمد ذلك"[١٠٩].

هذا، وقد أطال ابن حجر رَحِمَهُ الله في فتح الباري[١١٠] في ذكر أدلة كل فريق، وناقش تلك الأدلة، وضعف الكثير من أدلة القائلين بحياة الخضر، مما ينبأ عن معتقده في هذه المسألة، وهذا يظهر في كثير من كتبه.

وخير دليل على معتقده في حياة الخضر من عدمها ما ذكره في كتابه "الزهر النضر في نبأ الخضر"؛ حيث قال رَحِمَهُ الله- بعد أن ذكر وناقش جميع الأدلة-:"والذي تميل إليه النفس من حيث الأدلة القوية خلاف ما يعتقده العوام من استمرار حياته، ولكن ربما عرضت شبهة من جهة كثرة الناقلين للأخبار الدالة على استمراره، فيقال: هب أن أسانيدها واهية؛ إذ كل طريق منها لا يسلم من سبب يقتضي تضعيفها، فماذا يصنع في المجموع؟ فإنه على هذه الصورة قد يلتحق بالتواتر المعنوي الذي مثلوا له بجود حاتم. فمن هنا مع احتمال التأويل في أدلة القائلين بعدم بقائه كآية: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٣٤)، وكحديث: رأس مائة سنة، وغير ذلك...

وأقوى الأدلة على عدم بقائه عدم مجيئه إلى رسول الله ﷺ، وانفراده بالتعمير من بين أهل الأعصار المتقدمة بغير دليل شرعي، والذي لا يتوقف فيه الجزم بنبوته"[١١١].

وقد استدل ابن كثير بقوله ﷻ:﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٣٤) على موت الخضر، فقال رَحِمَهُ الله:"وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات، وليس بحي إلى الآن؛ لأنه بشر، سواء كان وليًّا، أو نبيًا، أو رسولاً وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ "[١١٢].

وقد ساق شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله بعض الأدلة العقلية التي تؤكد موت الخضر بما لا يدع مجالاً للشك في هذا.

قال رَحِمَهُ الله:"والصواب الذي عليه المحققون أنه ميت، وأنه لم يدرك الإسلام، ولو كان موجودًا في زمن النبي ﷺ لوجب عليه أن يؤمن به، ويجاهد معه، كما أوجب الله ذلك عليه، وعلى غيره، ولكان يكون في مكة والمدينة، ولكان يكون حضوره مع الصحابة للجهاد معهم، وإعانتهم على الدين، أولى به من حضوره عند قوم كفار ليرقع لهم سفينتهم، ولم يكن مختفيًا عن خير أمة أخرجت للناس، وهو قد كان بين المشركين ولم يحتجب عنهم....وإذا كان الخضر حيًّا دائمًا فكيف لم يذكر النبي ﷺ ذلك قط، ولا أخبر به أمته، ولا خلفاؤه الراشدون.

وقول القائل: إنه نقيب الأولياء. فيقال له من ولاه النقابة، وأفضل الأولياء أصحاب محمد ﷺ ؟، وليس فيهم الخضر.

وعامة ما يحكى في هذا الباب من الحكايات بعضها كذب، وبعضها مبني على ظن رجل؛ مثل شخص رأى رجلاً ظن أنه الخضر، وقال: إنه الخضر. كما أن الرافضة ترى شخصًا تظن أنه الإمام المنتظر المعصوم، أو تدعي ذلك.

وروي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال- وقد ذكر له الخضر-: من أحالك على غائب فما أنصفك، وما ألقى هذا على ألسنة الناس إلا الشيطان"[١١٣].

ورغم أن الآلوسي رَحِمَهُ الله ممن قال بتعمير الخضر عليه السلام بيد أنه أنصف القائلين بغير ذلك حين ذكر قوة أدلتهم، فقد قال رَحِمَهُ الله:"ثم اعلم بعد كل حساب: أن الأخبار الصحيحة النبوية، والمقدمات الراجحة العقلية تساعد القائلين بوفاته عليه السلام أي مساعدة، وتعاضدهم على دعواهم أي معاضدة، ولا مقتضى للعدول عن ظواهر

تلك الأخبار إلا مراعاة ظواهر الحكايات المروية والله ﷻ أعلم بصحتها عن بعض الصالحين الأخيار، وحسن الظن ببعض السادة الصوفية؛ فإنهم قالوا بوجوده إلى آخر الزمان على وجه لا يقبل التأويل السابق"[١١٤].

وأحسب أن خير الحق هو من أقر وشهد به الخصوم؛ فالآلوسي رَحِمَهُ الله رغم كونه ممن يقولون بتعمير الخضر تقليدًا لمشايخه الصوفية، وهذا معروف عنه، إلا أنه نصر الحق. وهذه سمة العلماء المنصفين.

فقول من قال بموت الخضر هو القول الراجح في هذه المسألة؛ لاستناده على أدلة قوية صحيحة صريحة، بخلاف الفريق الآخر الذي اعتمد على أحاديث ضعاف، وحكايات واهية خاوية من سند قوي معتبر.

المسألة السابعة
عصمة الأنبيـاء

اصطفى الله ﷻ من عباده رسلاً مبشرين ومنذرين، وهذا الاصطفاء يتطلب أن يحفظهم الله ﷻ مما لا يليق بمكانتهم، ولا يتناسب مع رسالتهم، وبما لا يتنافى مع بشريتهم في الوقت نفسه، فهم يأكلون ويشربون، ويتناكحون ويتناسلون، ويمرضون ويموتون، بيد أنهم لا يكذبون، ولا يخطئون في التبليغ عن ربهم، ولا يكفرون به، ولا يدعون إلى معصية أيًّا كانت.

وهذا الحفظ الإلهي يسمى بالعصمة؛ فأنبياء الله ﷺ معصومون وجوبًا في كل زمان ومكان من ارتكاب النقائص، وإتيان الفواحش، بخلاف غيرهم ممن يرتكبون ما نهى الله ﷻ عنه، وإن حفظ الله ﷻ أحدهم من ارتكاب بعض المعاصي فإن ذلك من باب الجواز، لا من باب الوجوب كما هو الحال مع الأنبياء.

وابن العربي ذهب إلى عصمة الأنبياء من الكبائر والفواحش، وذكر إجماع أهل العلم في ذلك، أما الصغائر فذهب إلى أن الأنبياء معصومون عن ارتكابها عن عمدٍ وقصدٍ، وأن هذا هو مذهب جمهور الفقهاء من المالكية[١١٥] والشافعية[١١٦] والأحناف[١١٧].

كما أنه في موضع آخر ذهب إلى أن الأنبياء معصومون بعد النبوة عن

الكبائر والصغائر، وأوّل ما وقع من بعض الأنبياء من صغائر ذكرها الله ﷻ في كتابه الكريم.

فقال رَحِمَهُ الله:"وللبشر صفات؛ منها: كمال، ومنها دناءات، فأمَّا صفات الكمال فهي له ولأصحابه الكرام على التمام والكمال، وأمَّا الدناءات فهم مبرءون منها، منزهون عن التلبس بها.

على أن الناس قد اختلفوا في عصمة الأنبياء عليهم السلام...والذي عندنا أنهم بعد النبوة معصومون، لا يُواقع أحد منهم خطيئةً، ولا يأتي دناءة؛ صغيرةً ولا كبيرة...

وخذوا في ذلك أصلاً بديعًا: لا يقولن أحدُكم عن النبي ﷺ ولا سائر الرسل إلا ما قال الله ﷻ، لا يزيد من عنده، ولا يُفسرُ بما لا يحتملُه اللفظُ من آدمَ إلى محمد ﷺ، وإذا قال عن أحد منهم شيئًا من ذلك فلا يقوله إلا قارئًا للقرآن، أو منبهًا لمن أشكل عليه حالٌ من الأحوال، فأما أن يضرب لذلك مثلاً وتنزُّهًا، وأما أن يجعلَهُ لمن يعصي عذرًا، فهو كفر يستتاب قائله"[١١٨].

ثم أخذ ابن العربي رَحِمَهُ الله يذكر بعض ما ورد في القرآن الكريم في حق بعض الأنبياء من معاصي محاولاً تأويل بعضها إما عن اجتهاد بعض الأنبياء في فعلها، أو نتيجة لغضب بعضهم من أقوالهم، إلى غير ذلك من أعذار ساقها ابن العربي للأنبياء، ونسي ابن العربي أن هذه الصغائر التي أتى بها الأنبياء إنما هي للدلالة عن بشريتهم، وأنهم ليسوا كالملائكة الذين خصهم الله ﷻ بخصائص ليست في أهل الأرض.

وموسى عليه السلام عندما قتل القبطي فإنه لم يكن قد بعث بعدُ، كما أنه لم يقتله عن عمد؛ فمثل هذه الضربة لم تكن لتقتل أحدًا، ولكنه قتل خطأ، وأن ضربه للقبطي كان من باب نصرة المظلوم، وإحقاق الحق، فوقع القتل عن غير قصد وتدبير، ولذلك دعا ربه ليغفر له، وعاهد الله ﷻ على عدم الرجوع لمثل هذا الفعل، فغفر الله ﷻ له. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ (سورة القصص: ١٦- ١٧).

ولذلك أحسب أن دعوى عدم وقوع الأنبياء في الصغائر من الذنوب دعوى باطلة، وأن ما ذهبوا إليه لنفي ذلك من كون ذلك يمنع التأسي بهم، والاقتداء بأفعالهم، ليس بصحيح من وجهين:

الوجه الأول:

أن صريح القرآن الكريم قد جاء بما يدل على وقوع بعض الأنبياء في صغائر المعاصي، وأنهم استغفروا ربهم ﷻ من ذلك، ولا مجال لتأويل هنا لانتفاء الدليل عليه.

الوجه الثاني:

أن وقوع الأنبياء في بعض الصغائر لا ينافي الاقتداء بهم؛ لأنهم لم يقروا ذلك، ولم يصروا عليه؛ بل كانوا يسارعون إلى التوبة منها، وكان الله ﷻ يتقبل التوبة منهم، فليس المطلوب من الأنبياء أن يكونوا ملائكة لا يخطئون.

وفي ذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله:"واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض؛ كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه: قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب، حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة الله لهم، ورفع درجاتهم بذلك. وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوبًا وعيوبًا نزههم الله عنها. وهؤلاء مخالفون للقرآن، وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط مهتديًا إلى الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين"[١١٩].

هذا، وإن تنازع أهل العلم في عصمة الأنبياء عن الصغائر فإنهم لم يتنازعوا في عصمتهم عن الكذب أو الخطأ في التبليغ عن ربهم ﷻ؛ لأن هذا هو أساس الرسالة والنبوة؛ فإن كان الذي أمامك كاذبًا في أي أمرٍ كان فكيف لك أن تصدقه فيما يبلغه عن رب العزة ﷻ ؟!، فالإجماع إذن منعقد على تصديقهم في أقوالهم وأفعالهم.

قال أبو العباس القرطبي عن عصمتهم من الكذب إنهم: " معصومون عما

يناقض مدلول المعجزة من معرفة الله ﷻ، والصدق، والعصمة عن الغلط في التبليغ. وعن هذا المعنى عبر الله ﷻ بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (سورة الكهف: ١١٠)، فمن حيث البشرية: يجوز عليهم ما يجوز عليهم، ومن حيث الخاصة النبوية: امتاز عنهم فهو الذي شهد له العلي الأعلى بأن بصره ما زاغ وما طغى، وبأن فؤاده ما كذب ما رأى، وبأن قوله وحي يوحى، وأنه ما ينطق عن الهوى"[١٢٠].

وقال النووي رَحِمَهُ الله:"اعلم أن النبي ﷺ معصوم من الكذب، ومن تغيير شيء من الأحكام الشرعية في حال صحته وحال مرضه، ومعصوم من ترك بيان ما أمر ببيانه، وتبليغ ما أوجب الله عليه تبليغه"[١٢١].

ومذهب أهل السنة والجماعة أن الأنبياء تقع منهم الصغائر دون قصد أو عمدٍ، وإنما يقعون فيها ظنًا منهم أنها ليست بذنوب، فإذا ما علموا أنها من الذنوب كانوا يسارعون إلى التوبة منها، ولا يُقرّون عليها، فيكون مقامهم بعد الصغيرة أفضل من مقامهم قبل الصغيرة.

قال الله ﷻ معاتبًا للنبي ﷺ:﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى. أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى. أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى. فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى. وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى. وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى. وَهُوَ يَخْشَى. فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى. كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ. فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ (سورة عبس: ١- ١٢).

هذا وقع من النبي ﷺ، فعاتبه الله في ذلك، مما يدل على أن الصغائر قد تقع من الأنبياء؛ بيد أن الله ﷻ يعاتبهم عليها، ولا يقرهم فيها، وفي الوقت نفسه يغفر لهم ذنوبهم، قال الله ﷻ لنبيه ﷺ:﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (سورة الفتح: ٢)، وقال الله ﷻ حكاية عن موسى ﷺ:﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة القصص: ١٦)، وقال ﷻ عن داود: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (سورة ص: ٢٤).

فهذا صريح في وقوع صغائر الذنوب منهم، لكن الأنبيـــاء معصومون من

الشرك والكبائر على الصحيح، وكذلك معصومون عن الخطأ فيما يُبلغون عن ربهم ﷻ.

الخاتمة:

إن التفرق في الاعتقاد لأخطر الأمور في الدين، ويخطئ من يعتقد أن التفرق الاعتقادي كالتفرق الفقهي؛ لأنه ما حلت بالأمة مصيبة أبشع وأخطر من التفرق الاعتقادي، الذي أدى إلى تمزق وحدة الأمة الإسلامية، وتهلهل نسيجها، وتشتت أفرادها؛ ما فتحت بليدة بهذا التفرق، وما رفعت راية حق به، وما حقنت دماء المسلمين به؛ بل زادت وزادت حتى صارت أنهارًا على مر العصور.

أقول هذا بعد أن توصلت من خلال هذا البحث لبعض النتائج، أهمها:

١) أن العقائد التي جاء بها الرسل والأنبياء مصدرها واحد، وما كان لحياة البشر أن تستقيم لولا اتحاد هذا المصدر؛ فهي منزلة من قبل الله العزيز الحكيم.

٢) أن لب دعوات الرسل وجوهر الرسالات السماوية هو التوحيد وعبادة الله ﷻ وحده، وعدم الإشراك به، ومحاربة كل ما يُعبد من دونه.

٣) أن الرسالات السماوية اتفقت في أوجه كثيرة؛ منها: الدعوة إلى عبادة الله وحده، والإيمان باليوم الآخر وبالبعث والنشور، والإيمان بأسماء الله وصفاته، والإيمان بالقضاء والقدر، وبالملائكة، وغيرها من قضايا تختلف فيها الأمة الواحدة الآن.

٤) إذا كانت رسالة الرسل والأنبياء واحدة في أصولها- أعني التوحيد- رغم كثرة عددهم، واختلاف عصورهم، وبيئاتهم، وأقوامهم، فلماذا هذا الاختلاف بين أمة الإسلام الواحدة؟ وما الداعي إليه؟ ومن المستفيد من هذا التمزق العقدي بين الفرق سوى أصحاب العقول والقلوب الفاسدة من ذوي الديانات الباطلة.

هوامش البحث:

---

[١] يراجع: محمد بن إسماعيل الصنعاني، ومحمد بن علي الشوكاني، تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليه شرح الصدور في تحريم رفع القبور، تحقيق: عبد المحسن بن حمد العباد البدر، ط١، ١٤٢٤هـ، الرياض، مطبعة السفير، ص: ٩.

[٢] يراجع: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد، تحقيق: زهير الشاويش، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، بيروت، دمشق، المكتب الإسلامي، ص: ١٩

[٣] الحافظ الحكمي، أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، تحقيق: حازم القاضي، ط٢، ١٤٢٢هـ، المملكة العربية السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ص: ٢٢٩.

[٤] الصنعاني، تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليه شرح الصدور في تحريم رفع القبور: ٩

[٥] أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ص: ٢٣٩/٦.

[٦] أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي،المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، ١٤٢٢هـ، بيروت، دار الكتب العلمية، ص: ٢٢٧/٤.

[٧] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩ م، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، ص: ٣٠٤/٥.

[٨] يراجع: الحافظ الحكمي ،مَعارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تحقيق: أبو عمر عمر بن محمود، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠م، الدمام، دار ابن القيم، ص: ٣٣٥/١.

[٩] ابن العثيمين، أسماء الله وصفاته وموقف أهل السنة منها، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، دار الشريعة، ص: ٢٥.

[١٠] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: أنور الباز، وعامر الجزار، ط٣، ١٤٢٦ هـ- ٢٠٠٥م، المنصورة، دار الوفاء، ص: ٢/٤.

[١١] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، ط٢، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م، القاهرة، دار الكتب المصرية، ص: ١٨/٦.

[١٢] أبو السعود العماري، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم:٢٥٦/٢.

[١٣] محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير، ط١، ١٤١٤هـ، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، ص: ٢٧٦/٢.

[١٤] محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ط١، ١٩٩٠ م، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص: ١٠٧/٩.

[١٥] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة، ص: ١٠٥/١٣.

[١٦] أخرجه البخاري، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، تحقيق: د.مصطفى ديب البغا، ط٣، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، اليمامة، بيروت، دار ابن كثير، (كتاب: بدء الوحي، باب: وفاة موسى عليه السلام، ٣٢٢٨).

[١٧] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: بدء الوحي، باب: كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ٧٠٧٢).

[١٨] الحافظ الحكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، ص: ٢٤٩/١.

[١٩] السفاريني، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، ط٢، ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢م، دمشق، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ص: ١٣٤/١.

[٢٠] يراجع: محمد بن خليفة بن علي التميمي، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، المملكة العربية السعودية، الرياض، أضواء السلف، ص: ٢٨٢.

[٢١] المرجع السابق: ٢٨٢.

[٢٢] يقصد في الآخرة.

[٢٣] أبو الحسن الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق: د.فوقية حسين محمود، ط١، ١٣٩٧هـ، القاهرة، دار الأنصار، ص: ٣٥.

[٢٤] أخرجه مسلم (كتاب:الإيمان، باب: بَابٌ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللهُ لا يَنَامُ، ٢٩٣).

[٢٥] أخرجه مسلم (كتاب: الإيمان، باب: بَابٌ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلامُ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»، وَفِي قَوْلِهِ: «رَأَيْتُ نُورًا» ، ٢٩٢).

[٢٦] أخرجه مسلم (كتاب: الإيمان، باب: بَابٌ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»، وَفِي قَوْلِهِ: «رَأَيْتُ نُورًا» ، ٢٩١).

[٢٧] يراجع: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: أحمد شاكر، ط١، ١٤١٨ هـ، المملكة العربية السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، ص: ١٦٠- ١٦٥. ويراجع: محمد بن عبد الرحمن الخميس، اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، ط١، ١٤١٩هـ، المملكة العربية السعودية، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، ص: ٧١- ٧٤.

[٢٨] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر، ٥٥٤)، وأخرجه مسلم، صحيح مسلم (كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح

والعصر، ٦٣٣).

[٢٩] أبو عمرو الداني، الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات، تحقيق: دغش بن شبيب العجمي، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، الكويت، دار الإمام أحمد، ص: ١٦٦.

[٣٠] الدارمي، نقض الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي العنيد، تحقيق: رشيد بن حسن الألمعي، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م، الرياض، مكتبة الرشد، ص: ٣٦٦/١.

[٣١] يراجع: ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، اتحاد الكتاب العرب، مادة: (مع).

[٣٢] الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٢٣٧/٢٣.

[٣٣] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٢٩٠/١٧.

[٣٤] ابن تيمية، مجموع الفتاوى:٢٦٣/٣.

[٣٥] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٢٩٦/٥.

[٣٦] ابن تيمية، مجموع الفتاوى: ١٢٥/٥.

[٣٧] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، ٦٩٧٠).

[٣٨] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالى:﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، ٣٠٢٢).

[٣٩] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: القدر، باب: تحاج آدم وموسى عند الله، ٦٢٤٠).

[٤٠] يراجع: ابن تيمية، مجموع الفتاوى: ٧٣/٥.

[٤١] يراجع: ابن خزيمة، كتاب التوحيد، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، ط٥، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، الرياض، مكتبة الرشد، ص:١٢/١.

[٤٢] مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي، أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط١، ١٤٠٦هـ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص:١٤٥.

[٤٣] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: الرقاق، باب: التواضع، ٦١٣٧).

[٤٤] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل منرأسلم على يديه رجل، ٢٨٤٧).

[٤٥] يراجع: ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط١، ١٣٩١هـ، الرياض، دار الكنوز الأدبية، ص: ٦٢/٦.

[٤٦] يراجع: ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط٢، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م، بيروت، دار الكتاب العربي، ص: ١٨/٣.

[٤٧] يراجع: السفاريني، لوامع الأنوار البهية: ٢٢٢/١، ويراجع: عبد الرّحمن بن صالح بن صالح المحمود، موقف ابن تيمية من الأشاعرة، الرياض، مكتبة الرشد، ص: ٢٢٣/٣.

[٤٨] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: المغازي، باب: حجة الوداع، ٤١٤١) واللفظ له، ومسلم، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (كتاب: الإيمان، باب: ذكر المسيح ابن مريم عليه السلام والمسيح الدجال، ١٦٩) بمثله.

[٤٩] أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، الرياض، دار الراية، ص: ١٩٦/١.

[٥٠] يراجع: السفاريني، لوامع الأنوار البهية: ٢٤٠/١.

[٥١] السابق نفسه.

[٥٢] الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، ٢٠٠١م، بيروت، دار إحياء التراث العربي، مادة (عان).

[٥٣] الإبانة: ١٢٠.

[٥٤] يقصد المعطلة من الجهمية.

[٥٥] ابن خزيمة، كتاب التوحيد: ٥٩/١- ٦١.

[٥٦] أخرجه مسلم، صحيح مسلم (كتاب: الإيمان، باب: معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة).

[٥٧] ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، مؤسسة قرطبة، ص: ١٣٩/٣.

[٥٨] النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط٢، ١٣٩٢هـ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ص: ١٥٣/١- ١٥٤.

[٥٩] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: التوحيد، باب: قول الله ﷻ:﴿ عالم الغَيب فلا يُظهر على غيبه أحدا﴾، ٦٩٤٤).

[٦٠] ابن قتيبة الدينوري، الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، ط٢، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م، الرياض، دار الراية، ص: ٢٥.

[٦١] الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة: ١٤٤.

[٦٢] أخرجه مسلم، صحيح مسلم (كتاب: القدر، باب: حجاج آدم موسى عليهما السلام، ٢٦٥٣).

[٦٣] الأشعري، رسالة إلى أهل الثغر، تحقيق: عبدالله شاكر محمد الجنيدي، ط٢، ٢٠٠٢م، دمشق، مكتبة العلوم والحكم، ص: ٢٤٧.

[٦٤] يراجع: ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ص: ١٥٣/٣.

[٦٥] المرجع السابق: ١٦٣/٣.

[٦٦] ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية: ٢٤٩.

[٦٧] يراجع: القسطلاني، إرشاد الساري إلى شرح صحيح االبخاري، ط١،١٣٢٣هـ، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق مصر، ص: ٤١٥/١٠.

[٦٨] السفاريني، لوامع الأنوار البهية: ١٥٦/١، ٣٣٨.

[٦٩] أخرجه مسلم، صحيح مسلم (كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، ٢٦٧٩).

[٧٠] الصابوني، عقيدة السلف وأصحاب الحديث، تحقيق: ناصر الجديع، ط٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، الرياض، دار العاصمة،ص: ٢٨٥- ٢٨٦.

[٧١] يراجع: البخاري، خلق أفعال العباد، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، الرياض، دار المعارف، ص: ٢٧٦، والشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط١، ١٤٠٤هـ، بيروت، دار المعرفة، ص: ٨٤/١.

[٧٢] يراجع: البخاري، خلق أفعال العباد: ٢٧٦، والطبري، التبصير في معالم الدين، تحقيق: علي ابن عبد العزيز بن علي الشبل، ط١، ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦م، دار العاصمة، ص: ١٦٧، وطاهر بن محمد الإسفراييني، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط١، ١٩٨٣م، بيروت، عالم الكتب، ص: ٦٤، وابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل: ٨١.

[٧٣] يراجع: ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ط١، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م، بيروت، دار المعرفة، ص: ٧٨٩/٢- ٧٩٤.

[٧٤] هو: أبو عمر وقيل أبو عامر، زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان بن مالك بن الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج، صحابي جليل، غزا مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة ثبت ذلك في الصحيح، وله حديث كثير، ورواية أيضا. يراجع: ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط١، ١٤١٢هـ، بيروت، دار الجيل، ص: ٥٨٩/٢.

[٧٥] أخرجه مسلم، صحيح مسلم (كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، ٢٧٢٢).

[٧٦] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: وفاة موسى وذكره، ٣٢٢٨. وكتاب: القدر، باب: تحاج آدم وموسى عند الله، ٦٣٤٠) وفي مواضع غيرهما واللفظ له، ومسلم، صحيح مسلم (كتاب: القدر، باب: تحاج آدم وموسى عليهما السلام، ٢٦٥٢) بمثله.

[٧٧] أخرجه ابن ماجه في سننه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي (كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة، ٤٢٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود. وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته، بيروت، المكتب الإسلامي: ٥٧٨/١ (٣٠٠٨).

[٧٨] ابن قيم الجوزية، شفاء العليل: ٢١١/١.

[٧٩] ابن قيم الجوزية، شفاء العليل: ٢١٠/١.

[٨٠] أخرجها البخاري، صحيح البخاري (كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾، ٤٤٥٩).

[٨١] أخرجها البخاري، صحيح البخاري (كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: ﴿ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾، ٤٤٦١).

[٨٢] أخرجها البخاري، صحيح البخاري (كتاب: القدر، باب: تحاج آدم وموسى عند الله، ٦٢٤٠)، ومسلم، صحيح مسلم (كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٢٦٥٢).

[٨٣] أخرجها البخاري، صحيح البخاري (كتاب: التوحيد، باب: قوله:﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، ٧٠٧٧).

[٨٤] أخرجها مسلم، صحيح مسلم (كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٢٦٥٢).

[٨٥] أخرجها مسلم، صحيح مسلم (كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٢٦٥٢).

[٨٦] أخرجها مسلم، صحيح مسلم (كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٢٦٥٢).

[٨٧] ابن تيمية، مجموع الفتاوى: ١٧٨/٨- ١٧٩.

[٨٨] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: وفاة موسى عليه السلام، ٣٢٢٦).

[٨٩] ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ط١، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ، ص: ٤٤٢/٦.

[٩٠] ابن تيمية، مجموع الفتاوى: ٤٨٥/٨.

[٩١] الحافظ الحكمي، معارج القبول: ٩٨٨/٣.

[٩٢] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٢٢٢/٦.

[٩٣] الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ط١، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص: ١٥٠/٦- ١٥١.

[٩٤] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ: بعثت بجوامع الكلم، ٦٨٤٦) واللفظ له، ومسلم، صحيح مسلم (كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، ١٥٢) بمثله.

[٩٥] يراجع: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، مادة (عجز).

[٩٦] القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: يحيى إسماعيل، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، المنصورة، دار الوفاء، ص: ٤٦٧/١. ويراجع: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ١٨٨/٢.

[٩٧] يراجع تفسير: فتح القدير: ٣١١/٣، أبي السعود: ٢٣٨/٤.

[٩٨] ابن العربي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، بيروت، دار الكتب العلمية، ص: ١٩٣/١٣.

[٩٩] لقد أفدت في تحريرهذه المسألة من رسالة الدكتوراه الخاصة بي، التي بعنوان "قضايا الاعتقاد عند شراح الكتب التسعة حتى نهاية القرن العاشر الهجري" دراسة تحليلية، غير منشورة، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، مصر، كلية الآداب، جامعة طنطا.

[١٠٠] يقصد حديث أُبَيّ بْنُ كَعْبٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: ''قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ...'' الحديث. أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: العلم، باب: ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم، ١٢٢. وكتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، ٣٢٢٠) واللفظ له، ومسلم، صحيح مسلم (كتاب: الفضائل، باب: من فضائل الخضر عليه السلام، ٢٣٨٠) بمثله.

[١٠١] ابن بطال، شرح صحيح البخارى، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، ط٢، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م، الرياض، مكتبة الرشد، ص: ٢٠١/١.

[١٠٢] أخرجه البخاري، صحيح البخاري (كتاب: العلم، باب: السمر في العلم، ١١٦. وكتاب: مواقيت الصلاة، باب: ذكر العشاء والعتمة ومن رآه واسعًا، ٥٧٦) واللفظ له، ومسلم،

صحيح مسلم (كتاب: فضائل الصحابة، باب: قوله ﷺ: لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم، ٢٥٣٧) بمثله.

[١٠٣] أبو الحيان الأندلسي، البحر المحيط، بيروت، دار الفكر، ص:٦/١٤٠.

[١٠٤] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١١/٤١.

[١٠٥] النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ١٥/١٣٥- ١٣٦. ويراجع: ١٦/٩٠، ١٨/٧٢.

[١٠٦] هو: أبو الطيب، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي، علامة بالحديث، هندي، من تصانيفه: التعليق المغني على سنن الدارقطني، وعون المعبود على سنن أبي داود، والمكتوب اللطيف إلى المحدث الشريف، وعقود الجمان، والقول المحقق، توفي سنة ١٣١٠هـ. يراجع: الزركلي، الأعلام، ط١٥، ٢٠٠٢م، دار العلم للملايين، ص: ٦/٣٩.

[١٠٧] العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ط٢، ١٤١٥هـ، بيروت، دار الكتب العلمية، ص: ٩/١٤٦٤- ١٤٦٦.

[١٠٨] هو: أبو الحسين، أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله بن المنادي البغدادي، مفيد العراق، صاحب الكتب، توفي سنة ٣٣٦هـ. يراجع: الذهبي، تذكرة الحفاظ، دراسة وتحقيق: زكريا عميرات، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، بيروت، دار الكتب العلمية، ص: ٣/٤٦.

[١٠٩] ابن حجر، الزهر النضر في حال الخضر، تحقيق: صلاح مقبول أحمد، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، جوغابائي نيودلهي، الهند، مجمع البحوث الإسلامية، ص: ٩٢.

[١١٠] يراجع ابن حجر، فتح الباري: ٢/٧٥، ٦/٣٧٥، ٤٣٤- ٤٣٥، ٧/٤٤٣- ٤٤٤، ٨/٤١٥، ١٣/١٠٤.

[١١١] ابن حجر، الزهر النضر في نبأ الخضر: ١٦٢.

[١١٢] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٥/٣٤١.

[١١٣] ابن تيمية، مجموع الفتاوى: ٢٧/١٠٠- ١٠٢.

[١١٤] الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ص: ٨/٣٠٩.

[١١٥] يراجع: ابن العربي، المسالك شرح موطأ مالك، تعليق: محمد بن الحسين السليماني، وعائشة بنت الحسين السليماني، ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، دار الغرب الإسلامي، ص: ٢/٤٠٩- ٤١١.

[١١٦] يراجع: النووي، روضة الطالبين وعمدة المفتين، تحقيق: زهير الشاويش، ط٣، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م، بيروت، المكتب الإسلامي، ص: ٢٠٥/١٠

[١١٧] الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ط٢، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، بيروت، دار الكتب العلمية، ص: ١٨/٣.

[١١٨] ابن العربي، المسالك شرح موطأ مالك:٢١٤/٦.

[١١٩] ابن تيمية، مجموع الفتاوى: ١٥ /١٥٠.

[١٢٠] أبو العباس القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم، تحقيق: مجموعة من المحققين، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، ص: ٥٧٠/٥.

[١٢١] النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ٩٠/١١.

المصادر والمراجع:

١) القرآن الكريم.

٢) الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: د.فوقية حسين محمود، دار الأنصار، القاهرة، ط١، ١٣٩٧هـ.

٣) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار الراية، الرياض، ط٢، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

٤) إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري، للقسطلاني، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق مصر، ط٧، ١٣٢٣هـ.

٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦) أسماء الله وصفاته وموقف أهل السنة منها، لابن العثيمين، دار الشريعة، ط١، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٧) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

٨) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م.

٩) اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، لمحمد بن عبد الرحمن الخميس، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٩هـ.

١٠) الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

١١) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، الحافظ الحكمي، تحقيق: حازم القاضي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٢٢هـ.

١٢) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، لمرعي بن يوسف الكرمي المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ.

١٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، تحقيق: يحيى إسماعيل، دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

١٤) البحر المحيط، لأبي الحيان الأندلسي، دار الفكر، بيروت.

١٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لأبي بكر علاء الدين الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

١٦) تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

١٧) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، لطاهر بن محمد الإسفراييني، تحقيق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

١٨) التبصير في معالم الدين، للطبري، تحقيق: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦م.

١٩) تذكرة الحفاظ، للذهبي، دراسة وتحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٢٠) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليه شرح الصدور في تحريم رفع القبور، لمحمد بن إسماعيل الصنعاني، ومحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: عبد المحسن بن حمد العباد البدر، مطبعة السفير، الرياض، ط١، ١٤٢٤هـ.

٢١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م.
٢٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
٢٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، مؤسسة قرطبة.
٢٤) تهذيب اللغة، للأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
٢٥) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
٢٦) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠م.
٢٧) الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، للبخاري، تحقيق: د.مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٢٨) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.
٢٩) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لأبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، دار الراية، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
٣٠) خلق أفعال العباد، للبخاري، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار المعارف، الرياض.
٣١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، الرياض، ط١، ١٣٩١هـ.
٣٢) رسالة إلى أهل الثغر، للأشعري، تحقيق: عبدالله شاكر محمد الجنيدي، مكتبة العلوم والحكم، دمشق، ط٢، ٢٠٠٢م.

٣٣) الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات، لأبي عمرو الداني، تحقيق: دغش بن شبيب العجمي، دار الإمام أحمد، الكويت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٣٤) روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، للآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٥) روضة الطالبين وعمدة المفتين، للنووي، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.

٣٦) الزهر النضر في حال الخضر، لابن حجر، تحقيق: صلاح مقبول أحمد، مجمع البحوث الإسلامية، جوغابائي نيودلهي، الهند، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

٣٧) سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

٣٨) شرح صحيح البخارى، لابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

٣٩) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق: أحمد شاكر، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٨ هـ.

٤٠) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٤١) صحيح الجامع الصغير وزياداته، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

٤٢) صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٣) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، لابن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٤) عقيدة السلف وأصحاب الحديث، للصابوني، تحقيق: ناصر الجديع، دار العاصمة، الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٤٥) عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ.

٤٦) فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

٤٧) قضايا الاعتقاد عند شراح الكتب التسعة حتى نهاية القرن العاشر الهجري، دراسة تحليلية، رسالة دكتوراه، هيثم فهيم أحمد مجاهد، غير منشورة، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، مصر، كلية الآداب، جامعة طنطا.

٤٨) كتاب التوحيد، لابن خزيمة، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، مكتبة الرشد، الرياض، ط٥، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٤٩) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، للسفاريني، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، ط٢، ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢م.

٥٠) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، تحقيق: أنور الباز، وعامر الجزار، دار الوفاء، المنصورة، ط٣، ١٤٢٦ هـ- ٢٠٠٥م.

٥١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٥٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.

٥٣) المسالك شرح موطأ مالك، لابن العربي، تعليق: محمد بن الحسين السليماني، وعائشة بنت الحسين السليماني، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

٥٤) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، للحافظ الحكمي، تحقيق: أبو عمر عمر بن محمود، دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠م.

٥٥) معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى، لمحمد بن خليفة بن علي التميمي، أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

٥٦) المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم، لأبي العباس القرطبي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٥٧) مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
٥٨) الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.
٥٩) موقف ابن تيمية من الأشاعرة، لعبد الرّحمن بن صالح بن صالح المحمود، مكتبة الرشد، الرياض.
٦٠) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.
٦١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.
٦٢) نقض الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي العنيد، للدارمي، تحقيق: رشيد بن حسن الألمعي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.